روايات عبير

آن ميثر

صحراء الثلج

www.elromancia.com
مرمورية

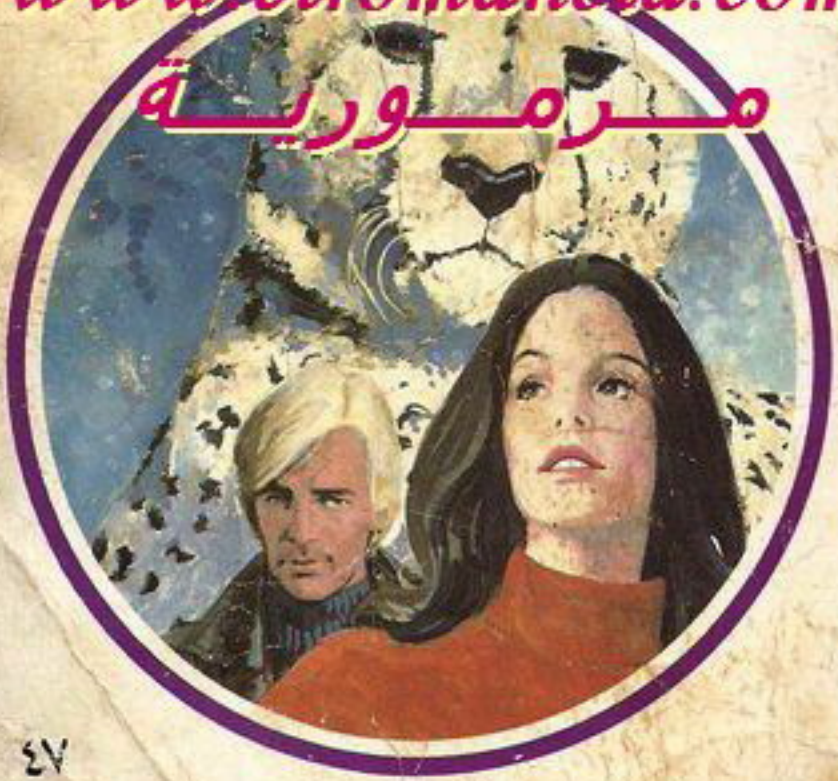

٤٧

روايات عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No. 47

صحراء الثلج

ارادت هيلين ان تفكر في الوضع العائلي الذي تعيشه منذ زواج ابيها بايزابيل ثورب مما جعله طموحاً واضاف الى ثروته ثروة جديدة. أرادت أن تخرج من الطوق المضروب حولها وأن ترى من بعيد شروط ارتباطها بمايكل فراملي والمستقبل المتوقع لها كما أراده والدها. الاّ أنّ هروبها اداى بها الى الضياع في صحراء من الثلج وبالتالي الوقوع بين أيدي رجل محطم جسدياً يدعى دومينيك لايول... كان بطل سباق سيارات ووقع له حادث واختفى... وبرغم معاملته القاسية لها تحبه، لكنه يطلب منها الرحيل والعودة الى لندن. فهل تنسى هيلين دومينيك لايول بسهولة وتعود الى وتيرة حياتها الاجتماعية، أم تهرع اليه في المستشفى حيث ينتظر عملية جراحية حاسمة؟

لبنان ٧ ل.ل.	الكويت ٧٠٠ ف	اليمن ٨ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ٨ ل.س.	الامارات ٩ د	تونس ١ د	U.K. £ 1
الأردن ٥٠٠ ف	البحرين ٩٠٠ ف	ليبيا ٧٠٠ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ٩ ر	المغرب ٨ د	Greece Drs 120
السعودية ٨ ر	عمان ٩٠٠ ب	مصر ٨٠٠م	Cyprus P 1

١ ـ ضائعة في الثلج

السكان المحليون، يراقبون وينتظرون رحيل الزائرين وهي تتذكر تلك البقعة من منطقة البحيرات اذ كان والدها يحتفظ بمركب في باونيس عندما كانوا يقطنون في ليدز وكانوا يتوجهون إلى تلك المنطقة بعد انتهاء العام الدراسي. كان والدها يعلمها قيادة المراكب. وبينما هيلين تستعيد الماضي كانت تبدو لها تلك الفترة من أجمل أيام حياتها. كان ذلك قبل أن يصبح والدها طموحاً ويوافق على انضمام شركته الصغيرة الى شركة ثورب الهندسية ويتزوج إيزابيل ثورب، ويصبح رجلا غنياً ذا نفوذ واهتمامات رياضية أرفع شأناً وأكثر رفاهية من رياضة القوارب.

لكن الجبال كانت في هذا الوقت بيضاء، مما يعني أن الثلوج كانت تتساقط منذ عدة أيام. وحتى البحيرات كانت مغطاة بطبقة رقيقة ناصعة. وعندما توقفت هيلين عند آخر قرية مرّت بها لتسأل عن طريق باونيس، كانت قد ابتعدت كثيراً عن الدرب الأصلي، ولم يكن هذا بمستغرب لأن كل اللافتات التي توضح الطريق مغطاة بالثلوج. ولم تحاول الخروج من سيارتها الدافئة لتمسح الجليد عن اللافتات لتستوضح طريقها. إنها تعترف الآن بغلطتها، لكن ذاكرتها لم تستطع أن تستعيد عشرات الطرق الفرعية وخاصة أنها تبدو جميعاً متشابهة في ظروف الطقس السيئة، ولا بد أنها اتخذت الكثير من المنعطفات الخاطئة.

عند ذلك تذكرت والدها. في الغد سيكتشف انها ذهبت، فماذا يفعل؟ هل سيكتفي بالرسالة التي كتبتها له شارحة حاجتها للانفراد بعض الوقت، أم سيحاول البحث عنها؟ إن الاحتمال الأخير هو الأرجح. والدها ليس ذلك النوع

من الرجال الذي يمكن أن يقف شيء في طريقه. وهو بلا شك سيغضب بشدة لأن ابنته الوحيدة تحاول أن تتحداه.

لكن احتمالات عثوره عليها ضعيفة. إنها تهنيء نفسها بفكرتها في الذهاب شمالا. كانت الأماكن التي تشغل تفكيرها في السنوات الأخيرة جزر الهند الغربية وجنوب فرنسا. فإذا كان والدها سيبحث عنها سيكون ذلك في الأماكن الدافئة. لأنه يعلم أنها تحب الشمس والسباحة والمراكب الشراعية. ولن يتوقع أبداً أن تتذكر ذلك الفندق الصغير الذي أخذها إليه، وهي تلميذة في السنوات التي تلت وفاة والدتها. وهو بالتأكيد لن يتوقع أن تقود سيارتها في هذه العاصفة الثلجية العنيفة.

وقطبت جبينها وقالت لنفسها: إذا كان هذا الطريق يؤدي الى مزرعة فيمكنها أن تطرق الباب، وتستفسر عن كيفية الوصول الى أقرب قرية. إنها لا تتوقع الآن أن تصل الى باونيس الليلة بالذات.

وأوقفت السيارة بدون أن توقف المحرك، ونزلت لتزيل الثلج الذي تراكم على المساحات. والتصق الثلج بأصابعها وشعرت بالبرودة الشديدة ثم ركبت السيارة مرة أخرى وهي تشعر أنها خاطرت بحضورها في السيارة، ولعله كان من الأفضل أن تسافر بالقطار لكنها لم تكن تريد أن تجازف بأن يتعرّف عليها أحد في المحطة ويخبر والدها عندما يكتشف غيابها ويبدأ في السؤال والبحث عنها.

توقفت المساحات مرّة أخرى وكانت مضطرة الى النزول لتنظيفها. كانت في المرّة الأولى قد نظفت المساحات وهي مستندة الى الباب لكنها في هذه المرّة أخذت تلبس حذاءها الطويل ذا النعل السميك. وبينما هي تفعل ذلك توقف محرّك السيارة.

نزلت من السيارة ووقفت وسط الثلج الكثيف الذي كان يلامس طرف سروالها الأحمر المطوي الى اعلى. والجليد يذوب ويجري على أكتافها وهي تنظف الثلج بسرعة عن الزجاج الأمامي لتطمئن إلى أن المساحات ستعمل ولو لفترة قصيرة. استغرقت بعض لحظات أخرى في خلع حذائها الطويل ثم أدارت مفتاح الاشعال. دار المحرك ولكن السيارة لم تتحرك. جرّبت مرة أخرى بلا فائدة. شعرت

بالخوف يسري في عروقها. ما الخبر؟ هل ستخذلها السيّارة. هذا لم يحدث من قبل فالسيارة ليست قديمة ولكنها لم تواجه مثل هذه الظروف من قبل. وبعد محاولات أخرى توقفت. وكان الوقت بدأ يتأخر وبعد قليل سيحلّ الظلام وهي لا تستطيع المجازفة بالبقاء في هذا المكان على أمل كاذب أن يأتي أحد لانقاذها. لم تكن هناك أية إشارة الى أن أحداً يمرّ بهذا الطريق. وقررت أن التصرف الأسلم بالنسبة اليها هو أن تترك السيارة وتبحث عن المساعدة، لأنها لو بقيت ولم يحضر أحد لمساعدتها من الجائز أن تتراكم الثلوج طوال الليل الى ان تدفنها تماماً... سمعت عن أناس تجمدوا حتى الموت في هذه الطريقة. وأخذت ترتدي حذاءها مرة أخرى وهي تقول لنفسها إنها مغامرة مثيرة، محاولة رفع روحها المعنوية. من كان يتصوّر، عندما تركت لندن هذا الصباح، أنها ستكون ضحية سيّارة معطلة في عاصفة ثلجية؟ إن تهنئتها لنفسها على براعتها في الاختفاء، وعدم إمكان والدها العثور عليها ستنقلب ضدها بأسوأ صورة.

خرجت من السيّارة وهي ترتدي معطفها الأحمر الدافيء المصنوع من الشاموا والمبطن بالفراء. وأخذت تطمئن نفسها إلى أن اللون الأحمر يظهر جيداً بين الثلوج ومن الجائز أن يلفت نظر أحد حتى لو لم تره هي. رفعت قلنسوة المعطف على رأسها وأخفت بداخلها خصلات شعرها الأسود الطويل. ثم لبست قفازها المصنوع من الفراء وطوت سروالها حتى ركبتيها وأخذت حقيبة يدها.

ونظرت إلى الطريق المهجور. كان من غير المجدي أن تعود ادراجها لأنها كانت تعلم أنها لن تقابل أحداً لعدة أميال، إذن فلا مفر من التقدم.

وكانت تقول لنفسها إنه ليس ممكناً أن تسير كل هذه المسافة بدون أن تقابل أي منزل أو إنسان ولكن هذا ما حدث فعلاً. هذا الطريق المتعرّج حجب السيّارة بسرعة عن نظرها ومن الجائز أنه يلتف حول أحد الجبال. إنها تشعر بأنها تصعد جبلا لأن ساقيها تؤلمانها ولكن ليس أمامها طريق آخر.

ثم توقفت ونظرت الى وراء، ولم يكن ممكناً تبيّن أيّ شيء. فقدت طريقها تماماً وبدا واضحاً أن اللون الرمادي الذي بدأ يظهر في السماء لم يكن بسبب ظروف الجوّ السيئة فقط ولكن عتمة المساء بدأت تحلّ والأمل في العثور على مكان تبيت

فيه لا يبدو كبيراً. وشعرت بالذعر، ماذا ستفعل؟ هل ينتقم منها القدر لأنها تحدّت حق والدها في أن يختار لها زوجاً؟

وأحست أن شيئاً ما يتحرّك. وبطرف عينها رأت أنه شيء ملون وأجفلت عيناها، ماذا كان ذلك؟ من المحتمل أنه حيوان يبحث عن طعامه. يا للحيوان المسكين! أي طعام يمكن أن يجده تحت كل هذه الثلج. رفعت يدها لتحمي عينيها من الثلوج المتساقطة وحاولت أن ترى. تأكدت أنه حيوان وقد يكون معطفها الأحمر لفت نظره. قد يكون كلباً. إنها ترجو ذلك. وقد يكون صاحبه قريباً. وأخذت تصلي وتأمل.

كان هذا الكائن يقفز نحوها. إنه يبدو ككلب. لونه أصفر غريب وأثناء اقترابه تبيّنت أن فيه بقعاً سوداء أيضاً. لا بدّ أنه نوع من الكلاب الدلماسية الصفراء. وفجأة شعرت بأن ساقيها لا تقويان على حملها والخوف والرعب يمسكان بها.إنه ليس كلباً. إنه ليس حيواناً أليفاً. إنه نمر. نمر بين الثلوج. تسمّرت في مكانها ولم تستطع حراكاً. تلك المشية المتحفزة بلا صوت ترعبها. حركت رأسها يساراً ويميناً: لا نمور في كمبرلاند. لابد أنها تهذي أو تتخيّل. لا بد أن بياض الثلج الباهر جعلها تتخيّل ذلك. لا يمكن أن يكون حقيقة...إنه لا يصدر أي صوت.

ولكن باقترابه استطاعت أن ترى أكتافه القوية وعضلاته تتحرّك تحت شعره الناعم، وتصورت أنها تشعر حتى بحرارة أنفاسه. فشهقت برعب ثم ارتكبت التصرّف الخاطىء الذي تعلمت دائماً ألا تفعله في مواجهة حيوان مهاجم. استدارت لتركض...

تعثرت في الثلوج العميقة الى جانب الطريق وشقت طريقها خلال الحاجز النباتي وهي تشعر بالاغصان تجذب شعرها وتخدش خديها بعنف ولكن أي ألم أهون من فكرة أن ينشب النمر مخالبه في عنقها. وزادها الخوف قوة فاندفعت للأمام ولكن الثلوج العميقة في الحقل الممتدّ كانت تعرقل تقدّمها. وكانت تتوقع أن تشعر بأنياب النمر الساخنة تنغرز في رقبتها ومخالبه توقع بها. وأحست بالاختناق وصعدت العبرات الى عينيها. وفكرت بمرارة أنها ما كان يجب أن تترك لندن. هذه هي نتيجة التصرّف الاناني...

ثم تعثرت قدمها في جحر أرنب ففقدت توازنها وسقطت. وحاولت أن تزحف وهي تبكي. وبينما هي في هذه الحال سمعت صوتاً كانت تعتقد أنها لن تسمعه مرة أخرى. صوت إنسان. صوت إنسان يصرخ آمراً:

«شيبا! شيبا! أيتها الحقيرة!»

ارتخت كتفا هيلين ونظرت بخوف خلفها. توقفت النمرة على بعد بضعة أقدام منها وكانت تنظر إليها بتركيز مخيف. وكان هناك رجل طويل ونحيل يشقّ طريقه عبر الحاجز وهو متشح تماماً بالسواد، معطف وسروال أسود وحذاء طويل أسود. وكان رأسه عارياً. وبينما كانت هيلين تنهض واقفة لاحظت أن شعره كان فاتحاً لدرجة أنه يبدو فضي اللون. لكن جلده كان غامقاً بما لا يتناسب مع لون شعره. وكان هناك شيء مألوف في ملامحه الخشنة وعينيه المحفورتين بعمق تحت أجفان ثقيلة وأنفه منحوت بقوة وفم واسع ذي شفتين رقيقتين وقد بدا عليها في هذه اللحظة تعبير بالازدراء وهو يقترب منها. كما لاحظت أنه يسير بعرج واضح.

أدارت النمرة رأسها عند اقترابه فوضع يده على رأسها الفخور يداعبه قائلاً لها بصوته العميق الخفيض:

«اهدأي يا شيبا».

ثم استدار نحو هيلين معتذراً بدون أن يبدو عليه أي أسف حقيقي.

«اعتذاراتي! ولكن ما كان يجب عليك أن تركضي لأن شيبا لم تكن ستمسك بسوء».

تضايقت هيلين بشدة من تعبير الازدراء الذي أبداه لأنها لم تكن معتادة على الركض خوفاً على حياتها كما أنها لم تكن معتادة الوقوف بهذه الصورة المشعثة أمام أي رجل. بل بالعكس فإن جمالها وشعرها الأسود الناعم وجسمها الرشيق، كل ذلك يجعل علاقتها بالرجال سلسة. ورغم أنها لم تكن مغرورة لكنها كانت واثقة من جمالها ومن انجذاب الجنس الآخر إليها. لكن الطريقة التي كان ينظر بها هذا الرجل جعلتها تشعر كطفل مضحك تخطّى حدوده ووجد نفسه في موقف لا يحسد عليه.

قالت وقد ضايقها أن صوتها يرتجف:

«كيف تقول ذلك؟ لو لم توقفها لافترستني».

هز رأسه ببطء قائلاً:

«إن شيبا مدربة على أن تحضر فريستها لا أن تفترسها».

أجابت هيلين وهي تزيح الثلج عن أكمامها:

«لم أكن أعلم أني فريسة».

«لقد ركضت!»

حاولت هيلين أن تبدو ساخرة:

«أه... لقد فهمت! وسأحاول أن أتذكر في المستقبل ألاّ أفعل ذلك».

خفّت حدة ملامح الرجل قليلا وهو يقول بسخرية:

«لم نكن نتوقّع أن نجد أي شيء يستحقّ الصيد اليوم».

تنفّست هيلين بصعوبة:

«ألم تجد؟»

«إنك تقللين من شأن نفسك».

ونظر حوله ثم استطرد:

«هل تقومين برحلة سيراً على الأقدام حول الجبل؟»

وصعدت الدماء الى وجنتي هيلين وقالت:

«لقد تعطلت سيارتي هناك».

وأشارت بغموض الى الطريق:

«وكنت أحاول البحث عن عون عندما ظهرت نمرتك».

«شيبا؟»

نظر الرجل الى أسفل إلى القطة الكبيرة التي وقفت بجانبه وقال:

«شيبا ليست نمرة...إنها فهد وهي من الفصيلة نفسها. ويطلق عليها أحياناً اسم الفهد الصياد».

وردت هيلين بصوت مرتعش:

«لا يهمني ما هي...هل يمكنك...هل يمكنك أن تدلني الى أقرب هاتف كي يحضر

أحد ويأخذني؟»

ربت الرجل على رأس الفهد وقال:

«للأسف لا يوجد اي هاتف على مقربة من هنا».

«أليس هناك أي منزل فيه هاتف أستطيع استعماله؟»

«هناك مساكن قليلة في هذه البقعة».

«هل تحاول إعاقتي عن عمد...أم أن هذه هي طريقتك في معاملة الغرباء؟»

قابل الرجل لهجتها غير المهذبة ببرود مماضايقها.

«انني أبيّن لك أنك في منطقة منعزلة بشكل مميّز في كل حال أرحب بك في منزلي إذا كنت لا تجدين ذلك أمراً كريهاً».

وترددت هيلين:

«أنا...أنا لا أعرف من أنت».

«ولا أنا أعرفك».

«لا...ولكن....

هل أنت متزوج؟هل تعيش بمفردك؟ فيما عدا هذا...هذا الكائن؟»

«لا».

تحرّك في وقفته كأنما الوقوف طويلا في وضع واحد يؤلم ساقه.

«لدي خادم... ولا يوجد سوانا».

فكّرت هيلين في ذلك. يا إلهي... أي موقف هذا! أمامها إما أن تستمر في المشي في هذه الظروف الجوية المريعة على أمل أن تجد إن عاجلاً أو آجلا مرعى أو مزرعة جبلية وهي مجازفة غير مأمونة أو أن تصحب هذا الرجل... هذا الغريب - الى منزله وتقضي الليل مع اثنين من الغرباء. أية مشكلة!

قال الرجل وقد بدا عليه التعب:

«أرجو أن تقرّري أمرك بسرعة».

«سأقبل ضيافتك إذا كان ذلك ممكناً. هل أعود لاحضار حقائبي؟»

«سيحضرها بولت هيّا تعالي لأن الظلام سيحلّ قريباً».

وبدأ في السير منحدراً نحو الطريق المسور. وقالت هيلين:

«أليس... ألا يجب أن نتعارف؟»

نظر إليها الرجل بسخرية وأجاب:

«أظن أن هذا يمكن تأجيله هل تريدين أن تبتلّ تماماً؟»

تنهّدت هيلين، هذا ليس جواباً على سؤالها. ولكنها تبعته على المنحدر الزلق وهي حريصة أن تكون على بعد من الفهدة. وعندما وصلا الى الطريق الضيق الذي زاد ضيقه بالثلوج المتراكمة على جانبيه، سارت الفهدة باعتزاز في المقدمة واضطرت هي أن تسير إلى جانب الرجل، ورغم عرجه كان يتحرّك بنوع من الرشاقة والمرونة مما جعلها تظن من الجائز أنه كان رياضياً في يوم من الأيام. هل كان هذا هو السبب في أن وجهه كان مألوفاً لديها لأول وهلة؟ أم أنه كان يذكّرها بشخص تعرفه؟ وحول المنعطف دخلا في طريق أضيق يتفرّع من الأول. كانت عليه لافتة مغطاة بالثلوج تبيّن أن هذا طريق خاص. شعرت هيلين بشيء من الخوف. إنها لا تعرف هذا الشخص وقد يأخذها إلى أي مكان. ومن الجائز أنه كذب عليها عندما أخبرها بعدم وجود هاتف عمومي في المنطقة.

وكأنه قرأ أفكارها قال:

«إذا كنت تفضلين العودة يمكنك أن تفعلي ذلك فأنت حرة ولن أرسل شيبا وراءك إذا كان هذا ما يخيفك».

«أنا... لماذا أعود؟»

«حقاً؟»

نظر إليها الرجل نظرة جانبية فلاحظت بالصدفة أن رموشه كثيفة بشكل غير عادي وأنها غامقة وتغطي عينيه بلونها الأصفر الغريب كلون عيني شيبا. وكعيني شيبا أيضاً كان لا يمكن التنبؤ بما تخفيانه.

كان الطريق يصعد ملتفاً بشكل غير منتظم. ثم اخترقا بوابة حديدية وسارا عبر بعض الحقول في طريق مغطى حتى منتصفه بالثلوج. ودق الرجل قدميه على الأرض لينفض الثلج عن حذائه، ونصحها أن تفعل مثله ودفع الباب الخشبي فانفتح، وأشار إليها بأن تدخل. نظرت هيلين بخوف نحو شيبا فقد

كانت الفهدة تراقبها بنظرة ثابتة لكنها وقفت ساكنة بجانب سيدها. وتقدّمت هيلين وسبقتها داخل المبنى إلى البهو. وغمرها دفء المكان فأحسّت فقط في تلك اللحظة كم كانت تعاني من البرد. انتابتها قشعريرة شديدة وأخذت أسنانها تصطك. وبمجرد دخولها ظهر رجل من الباب الخلفي للصالة ورغم حالة الارتجاف والقشعريرة التي انتابت هيلين لم تستطع إلا أن تحملق في هذا القادم. كان في مثل طول الرجل الذي اصطحبها لكنه كان ضعفه في العرض وله جسم مصارع ذي كتفين عريضتين ورأس أصلع تماماً. وألقى القادم نظرة سريعة على هيلين ثم انتقلت نظرته إلى الرجل الذي اصطحبها:

«تأخرت يا سيدي بدأت أقلق عليك».

قال ذلك وهو يشدّ أكمام قميصه التي كانت مطوية فوق مرفقيه.

أخذ الرجل الذي اصطحب هيلين يفك أزرار معطفه وعيناه تنظران بتأمل الى الفتاة المرتجفة ثم علق بصوته المنخفض الجذاب:

«كما ترى يا بولت لدينا زائرة...تعطلت سيارة الآنسة في الطريق بالقرب منا. بعد أن تعد لنا الشاي هل يمكنك الذهاب لاحضار حقائبها؟»

فكّرت هيلين أن التعبير على وجه بولت وهو يستمع إلى كلام سيده مثل تعبير شيبا. فإن كليهما يتصرفان كأنما راحة وأمان الرجل الذي يخدمانه أهم شيء في العالم.

أجاب بولت في شبه ابتسامة:

«بالطبع يا سيدي لا بد أن الآنسة ستقضي ليلتها هنا، سأجهز لها غرفة أليس كذلك؟»

«أشكرك يا بولت».

وخلع الرجل معطفه الجلدي فظهر قميصه الأسود الحريري وصدريته من تحته وتناول الخادم المعطف، واستدار الرجل الى هيلين قائلاً:

«يمكنك إعطاء معطفك أيضاً لبولت. وأؤكد لك أنه يستطيع أن يجففه بدون أن يصيبه أي تلف».

كانت هيلين ترتجف بشدة حتى أنها لم تستطع أن تفك أزرار معطفها.

ولدهشتها تحرك الرجل الأعرج نحوها ودفع يديها المثلجتين جانباً وأخذ يفك لها المعطف ثم رفع يديه وسحبه عن كتفيها وتلقاه بولت قبل أن يسقط على الأرض. لم تكن تعرف هذا الرجل ذا الملامح الخشنة واللسان السليط ولم تكن تريد أن تعرفه... كان فيه شيء يقلقها ويخيفها. ومع ذلك فإن لمسة يده السريعة عندما دفع يديها بعيداً جعلت النار تسري في ذراعها كأنما أحرقتها وشعرت بالنشوة والنفور في الوقت نفسه.

وتحرك بولت وفتح باباً الى اليمين. ثم تبيّنت أن الرجلين ينتظران أن تسبقهما فسارت بطريقة مضطربة ودخلت الغرفة وهي تضم نفسها بقوة في محاولة لوقف تلك الرعشة السخيفة.

ووجدت نفسها في غرفة جلوس فسيحة مضاءة بمصباحين عاديين والنار مشتعلة في المدفأة الضخمة. وكانت قطع الخشب مكومة في النار والغرفة تفوح برائحة خشب الصنوبر والأرض مغطاة ببعض الأبسطة وعلى حدة بعض كراسي المائدة ومكتب وطقم من ثلاث قطع مغطاة بقماش غامق وأجفلت عندما مرت الفهدة بجانبها وذهبت لتتمطى أمام المدفأة ونظرت حولها بخوف لترى إذا كانت بمفردها مع هذا الحيوان فاذا الرجل يأتي نحوها وهو يعرج، وقد ذهب بولت الى عمله.

«هلا جلست؟»

أشار إلى الأريكة أمام المدفأة وبعد لحظة ذهبت هيلين لتجلس على طرف الكرسي بجانب المدفأة ونظر إليها بسخرية ثم جلس على الكرسي المقابل ومدّ ساقيه أمامه براحة ظاهرة. وبعد لحظة استدار ونزع غطاء القارورة وقال بهدوء وهو يلقي عليها نظرة شاملة:

«قليل من الشراب على ما أظن؟ يبدو عليك الحاجة الى كأس يدفئك».

لم يقم ليقدّم المشروب اليها ولكنه مدّ يده عبر المدفأة وكان على هيلين أن تأخذه. لم يكن ذلك مشروبها المفضل لكنها كانت سعيدة لأنه سيدفئها ويزيل عنها البرد. أخذت تشربه ببطء وبالتدريج فذهبت عنها الرعشة ولم يشرب رفيقها شيئاً بل استرخى في كرسيه وبعينين نصف مغلقتين أخذ يفحصها بتركيز شديد.

وقبل أن تفرغ من الشرب عاد بولت ومعه صينية الشاي. وقال:

«سأذهب الآن لاحضار الحقائب إذا أعطتني السيدة الشابة مفاتيحها».

«آه... نعم.... بالطبع».

أخرجت حلقة من الجلد فيها كل مفاتيحها وناولتها لبولت.

«أنا ممتنة جداً يا بولت. إنها على بعد ميل تقريباً...أوصد السيارة».

هز بولت رأسه:

«سأجدها يا آنسة».

«أشكرك».

واستراحت قليلا في جلستها ـ لقد بدأ الشراب يأتي بمفعوله. وبدأت تعود الى حالتها الطبيعية. ففي مثل هذا الوقت غداً قد تكون وصلت الى باونيس وتصبح هذه الواقعة التي حدثت لها مجرد ذكرى أو شيء، مسل تحكيه لأصدقائها عندما تعود الى لندن.

وبعد أن انصرف بولت اعتدل الرجل في جلسته ونظر إلى الصينية قرب ابريق الشاي وملحقاته. كان هناك طبق به بعض الشطائر وفطيرة الفاكهة تبدو لذيذة الطعم ـ سألها وهو ينظر إليها بعينيه الصفراوين:

«هل تريدين سكراً وحليباً أم ليموناً؟»

«أريده بحليب وبدون سكر مع الشكر».

أجابت وهي ترفض أن تستسلم للخوف بعدما استعادت ثقتها بنفسها. وبينما كان يسكب الشاي استمرت قائلة:

«ألا تظن أننا يجب أن نتعارف».

انتهى الرجل من سكب الشاي وأضاف الحليب ثم ناولها قدح الشاي وهو يقول:

«إذا كان هذا هاماً بالنسبة اليك».

شهقت هيلين:

«هل تقصد أنك يمكن أن تدعو شخصاً غريباً تماماً ليشاركك في منزلك بدون أن تهتم بمعرفة اسم هذا الشخص؟»

«من الجائز أني أعتبر نوع الشخص أهم من اسمه».

وقال وهو ينظر إليها بعينين ثابتتين:

«على سبيل المثال أنا غير محتاج لمعرفة اسمك لأعرف أنك فتاة عنيدة نوعاً ما ولا تسمع النصيحة التي تقدم إليها».

احمر وجهها وردت باحتقار:

«وكيف يمكنك أن تعرف ذلك؟»

هز كتفيه واستطرد:

«ليس من المعتاد أن تقوم آنسة مثلك بقيادة سيارتها وحدها في مثل هذه الظروف. ومن الواضح مما ذكرت أن معك حقائب مما يدل على أنك كنت تنوين البقاء في فندق او ما شابه».

ثم قطب جبينه وقال:

«من الجائز أنك رتبت لمقابلة شخص ما ـ بالطبع، ولكن لا يبدو عليك الاهتمام لتعطلك هذه الليلة».

رشفت هيلين الشاي وردت:

«السيدات يقمن أحياناً برحلات وحدهن ـ ألا تعلم ذلك؟»

«في مثل هذه الظروف ليس هذا شيئاً معتاداً».

«قد أكون إحدى الفتيات العاملات أو ممثلة هينة ما وضلت طريقها؟»

«نعم هذا ممكن ولكن ليس محتملاً».

«لماذا؟»

«لأني لا أظن أنك فتاة عاملة».

صاحت هيلين بنفاد صبر:

«لماذا؟»

«من الطريقة التي قابلت بها بولت وكأنك معتادة على وجود خدم حولك».

تنهدت هيلين وشعرت أنها في أية مناقشة معه ستكون الخاسرة. إلى جانب أنه يقدم لها ضيافته. قد يكون من الأفضل أن تكون ألطف قليلا في قبولها. فلم يكن من طبيعتها أن تتصرف بهذه الطريقة الحانقة ولكن شيئاً ما فيه جعل أسوأ

ما فيها يطفو.

«حسناً».

وافقت أخيراً:

«أنا لست فتاة عاملة، هذا صحيح، واسمي هيلين جيمس ابنة فيليب جيمس».

قال بسخرية وقد أخذ شطيرة بعد أن رفضت هي:

«وهل من المفروض أن أعرف هذا الاسم؟ للأسف أنا لست على صلة بالناس الآن».

وابتسم مما جعله يبدو أصغر سناً بكثير وإنفرجت شفتاها. إن وجهه مألوف... رأته من قبل... إنها متأكدة ولكن أين ومتى؟

أجبرت نفسها ان ترد على سؤاله بينما هي تفكر في هذا اللغز:

«والدي هو سير فيليب جيمس ـ وقد فازت شركته بجائزة صناعية في العام الماضي. إنها شركة ثورب الهندسية».

وهز الرجل رأسه:

«أصدقك».

قالت بصبر نافد:

«وأنت لم تخبرني باسمك؟»

«أخبريني أولا ماذا تفعلين هنا بعيداً عن المجتمع الذي تعتادينه؟»

وعضت هيلين شفتيها وقالت:

«في الحقيقة أنا... محتاجة للذهاب بعيداً بمفردي لفترة من الوقت، أحتاج لبعض الوقت لأفكر وأنا واثقة أن أبي لن يبحث عني».

وهنا قطّب الرجل وقال:

«هل تعنين أنك هربت؟»

«ليس كذلك. تركت لوالدي كلمة فلا حاجة به للانشغال عليّ».

«ولكنه سينشغل».

«ممكن».

تحركت هيلين بقلق وقالت:

«في أية حال هذا لا يعنيك. وأنا فقط ممتنة لأنك جئت في الوقت المناسب. ولو لم تحضر لحدثت لي متاعب حقيقية».

«فعلاً كان يمكن أن تموتي هناك في الثلج، وكان من الغباء ألا تخبري أحداً الى أين أنت ذاهبة. ألا تعرفين أنه كان من الممكن أن تدفن السيارة لأيام قبل أن يجدها أو يجدك أحد؟ أخبريني لماذا كان من المهم أن تهربي؟»

شعرت هيلين بالسخط:

«لا أظن أن هذا يخصك في شيء!»

«ومع ذلك أنا محب للاستطلاع. ارضي فضول شخص لم يعد من سكان ذلك العالم الذي تأتين منه».

ونظرت إليه هيلين بشدة ـ ما هذا الكلام الغريب الذي يردده! بالتأكيد إن بعد هذه المنطقة في الشتاء لا يعني أنها منقطعة تماماً عن العالم الخارجي. إلا إذا أراد الشخص ذلك. هزت رأسها ثم قالت ببطء:

«والدي يريد أن يتحكّم في حياتي ولكنني أبلغ الثانية والعشرين. ومن الجائز أن شخصيتي مستقلة كما قلت. وقد اختلفنا على مشكلة صغيرة».

«لا أظن أنها صغيرة الى هذه الدرجة، اذ دفعتك لأكثر من مائتي ميل في شتاء قارس يا آنسة جيمس. ولكن هذا لا يهم فأنا أحترم رغبتك في الاحتفاظ باسرارك الشخصية».

قلبت شفتيها. كان هذا تنازلا بالكاد. وأعادت قدح الشاي إلى الصينية وهي تقول:

«وأنت؟ ألا تجد المكان موحشاً في هذه المنطقة المنعزلة بعيداً عن كل الناس ولا يؤنسك إلا بولت؟»

أخفت رموشه الثقيلة عينيه:

«أنا لست إنساناً مسلياً يا آنسة جيمس. هل أستطيع أن أقدم لك مزيداً من الشاي؟»

رفضت وهي تضغط شفتيها بضيق وسألته:

«لماذا تتفادى الرد على سؤالي؟»

«هل كنت أفعل ذلك؟»

كان صوته هادئاً ولكن عينيه كانتا مترقبتين.

«أنت تعلم أنك كنت تفعل».

تنهدت وقطبت جبينها قائلة:

«أنا أعرف وجهك من مكان ما وأنا شبه متأكدة أني رأيتك من قبل، إما حقيقة أو في الأفلام».

قال ساخراً:

«إنك تطريني بشدة ـ أليس هذا دور الرجل؟»

تضايقت هيلين لأنه جعلها تشعر بالحرج وكان ذلك تجربة جديدة بالنسبة اليها.

«إنك تعلم ما أقصد. لقد رأيت وجهك من قبل أليس كذلك؟»

بدا عليه الملل من هذا الافتراض وفجأة قام من مكانه ووقف يدعك فخذه كأنه يؤلمه ثم سار بخطواته غير المنتظمة نحوالنوافذ وسحب الستائر الثقيلة على النوافذ ورأت هيلين قبل أن يختفي المنظر الخارجي عن نظرها أن المساء حلّ وملأها الثلج المتساقط شعوراً بالعزلة.

واستدار إليها قائلاً:

« بولت لن يتأخر في إحضار حقائبك وسيريك المكان الذي ستنامين فيه يا آنسة جيمس، انا أتناول طعام العشاء الساعة الثامنة تقريباً وأمل أن تصاحبيني».

وتململت هيلين في مقعدها وهي تشعر بالضيق بدلا من الخوف. واضح أنه مصمم ألاّ يجيبها عن أسئلتها. وجعلت حركتها المفاجئة الفهدةترفع رأسها وتحملق.

أجفلت فزعة وخرجت دمدمة منخفضة من حلق الفهدة القوي فجاء الرجل ناحيتها وأخذ يهدئها وعيناه على وجه هيلين المضطرب. سألها بصوت ناعم كالمخمل لكن برنة خفية كالصلب:

«هل يضايقك شيء يا آنسة جيمس؟»

هزّت هيلين رأسها وهي تنظر بيأس حول الغرفة المضاءة. كان عليها أن تعترف أن الغرفة جميلة جداً ولا تثير أي شعور بعدم الراحة، ولكن هذا شيء متوقع. على الجدران بعض تذكارات الصيد من سيوف وبنادق عتيقة وعدة قطع من رسومات زخرفية ثمينة. هل هو رسام أم نحات أم فنان من أي نوع؟

وفجأة لفتت نظرها صورة في إطار معلقة على الحائط خلف المكتب. لم تستطع أن تميّز كل تفاصيلها من حيث كانت تجلس في ضوء ضعيف، بل كانت ترى ما يكفي لتفهم أنها صورة تمثل حادث سيارة اذ تجمّع الرجال وأجزاء السيارات التي اختلطت في الطريق وانتشرت القطع المعدنية في الهواء الممتلىء بالغبار. لم تكن صورة ملوّنة بل تعطي الاحساس الكامل ببشاعة ووحشية الحادث.

انتقلت نظرتها الفزعة الى الرجل الذي كان يقف الآن جامداً بجانب الأريكة. كانت عيناه الصفراوان جامدتين وضيقتين ففهمت أنه لاحظ نظرتها المركزة على الصورة وفهمت أيضاً لماذا أصبح فجأة متباعداً. فهم أن شكوكها الخاصة بشخصيته في البداية تأكدت. كان واحداً من السائقين الذين حدث لهم هذا الحادث المروّع. لكنه لم يكن حادثاً عادياً.

وقالت ببطء وتعجب وهي تقف على قدميها:

«أنا أعلم من أنت... إنك... دومينيك لايول بطل السباق».

ذهب التوتر من جسمه النحيل واستند بيديه على ظهر الأريكة ثم قال بسخرية:

«نعم... أنا دومينيك لايول... ولكني لست الآن بطل سباق».

وحدقت فيه هيلين:

«ولكنك كنت كذلك... أنا أتذكر والدي وهو يتكلم عنك ـ كان معجباً بك أشد الاعجاب قبل... قبل...»

«قبل الحادث، أعلم ذلك».

قالها بمرارة.

«ولكني أعتقد... أقصد».

ثم توقفت وقد انعقد حاجباها في استغراب:

«كان الجميع يفترض انك اختفيت... والدي قال... وكل الناس قالوا...»

وتحرّكت بضيق ولم تكمل جملتها.

«كانوا يعتقدون أني مت؟»

كانت لهجته ساخرة واستطرد:

«نعم أعلم تلك الاشاعة، كانت إصابتي خطيرة وكان يلائمني أن أغذي هذا الاعتقاد. فليس هناك شيء أكثر إيلاماً من بطل يسقط ومع ذلك يحاول أن يحتفظ بالأضواء».

«ولكن الأمر لم يكن كذلك...»

واعترضت هيلين قائلة:

«كان الصدام حادثاً مروعاً... ولكن لا يمكن لوم أحد، إن الدعاية...»

قاطعها بصوته الهادىء الساخر:

«وهل قلت إني ألوم نفسي؟»

«لا ولكن... والدي كان من أشدّ المعجبين بك وكان هناك آلاف آخرون مثله. فهل تظن أنه من العدل أن تتركهم يفترضون أنك مت؟»

اعتدل دومينيك لايول وأخذ يدلّك فخذه بيده السمراء القوية:

«هل تظنين أنه ليس من حقي أن أتمتع بحياتي الخاصة لأني كنت في يوم من الأيام من المشهورين يا آنسة جيمس؟»

لن تعرف هيلين كيف ترد على كلامه:

«أنا لا أصدر أحكاماً يا سيد لايول، ولكن كل ما هنالك ان موهبة كموهبتك من المؤسف أن تضيع ولا يتعلم منها المتسابقون الجدد».

فلوى شفتيه ومرّ بأصابعه في شعره الفاتح قائلاً:

«هذا يكفي... لا أظنك ستفهمين يا آنسة جيمس».

رفعت هيلين رأسها وردت:

«إنك تقلل من شأني يا سيد لايول».

فابتسم ساخراً:

«ممكن...ولكن لسوء حظك أن ذاكرتك قوية. كنت أظن أن فتاة في السادسة عشر تهتم أكثر بالموسيقى الشعبية وأبطالها.»

«أخبرتك أن والدي كان يذهب الى سباق السيارات وكنت أذهب أحياناً معه».

ضاقت عيناه وهو يفكر:

«إنه أمر شاذ!»

وأقلقتها كلماته:

«ماذا تعني؟»

هزّ دومينيك لايول كتفيه باستنكار:

«واضح ما اقول!»

«ما هو الواضح؟»

نظر إليها بعينين ثابتتين جريئتين:

«تعرفك عليّ يا آنسة جيمس. لسوء حظك أخشى أن هذا يعني أنك لن تستطيعي ترك هذا المكان في الصباح!»

٢ ـ العشاء المردود

لعدة دقائق كان هناك سكون تام في الغرفة. لم تستطع هيلين أن تصدق أنها سمعت جيداً ما قاله ولكن شيئاً ما في وجهه النحيف الخشن أكد لها انها سمعته جيداً.

قالت أخيراً:

«لا يمكن أن تكون جاداً فيما قلت!»

«للأسف إني جاد يا آنسة جيمس».

«ولكن لماذا... لماذا؟»

«بالتأكيد هذا واضح أيضاً ـ فأنا لست مستعداً لذلك النوع من الدعاية الذي سيؤدي الى اكتشاف في هذا المكان».

ورفضت هيلين أن تقبل شعور الخوف الذي بدأ يضطرب بداخلها:

«ولكن... ولكني لن أخبر أحداً».

قالت محتجة وهي تكرر الكلمات نفسها التي سمعتها كثيراً في الأفلام وفي التليفزيون، عندما كان البطل يواجه بعض الهاربين من القانون. الاّ ان دومينيك لايول لم يكن هارباً من القانون. كان هارباً فقط من المجتمع.

«للأسف لا أستطيع أن أجازف ـ أخشى ألا يمكنك مقاومة الاغراء بأن تقولي لوالدك إن الرجل الذي كان يظن أنه مات مازال حياً وبصحة جيدة ويعيش في منطقة البحيرات».

«لن... لن يحدث».

وضغطت هيلين على يديها:

«في اي حال لا يمكن أن تبقيني هنا. هذا غير قانوني!»

فابتسم ابتسامه كريهة:

«حقاً؟»

«ولكنه جنون! أقصد أن والدي سيبحث عني!»

«قلت لي بنفسك إنه لن يخطر بباله أبداً البحث عنك هنا.»

«ليس في البداية. ولكن عندما لا يجدني في أي مكان آخر.»

«عندئذ ستكونين حرّة في العودة إليه.»

وارتعشت:

«ماذا تعني؟»

«ببساطة أنوي ترك هذا البلد ـ وحتى أفعل ستبقين هنا.»

وشهقت هيلين:

«ولكن هذا قد يستغرق شهوراً!»

ورد موافقاً ببرود:

«على الأقل أسابيع.»

وانفتح الباب فجأة خلفها فتحركت بعصبية. كان بولت وهو يقف على العتبة وكتفاه العريضتان يكسوهما الثلج.

«آه بولت لقد عدت.»

وحيّاه دومينيك لايول بدفء لم يظهره لهيلين.

«هل وجدت السيارة؟»

فابتسم بولت وقال:

«نعم يا سيدي. الحقائب في الردهة. سأخلع معطفي في لحظة وآخذ الآنسة إلى غرفتها.»

وهز دومينيك لايول رأسه موافقاً:

«نعم افعل ذلك يا بولت. وبالمناسبة إن اسم ضيفتنا هو الآنسة جيمس. هيلين جيمس. وستبقى معنا فترة أطول مما توقعناه.»

لا تعرف هيلين ما تناقله الرجلان لكن كل ما أبداه بولت من اندهاش

هو تقطيبة خفيفة من حاجبيه ثم ألقى بمفاتيحها إلى سيده وهو يقول:

«نعم يا سيدي.»

«سآخذ هذه المفاتيح.»

قال مخدومه هذا وهو يلتقطها عندما ألقاها له بولت.

«سأشرح لك الموقف فيما بعد ـ هل هذا حسن؟»

«نعم يا سيدي.»

كان بولت مستعداً لارضائه بطريقة مثيرة ـ وشعرت هيلين وهي تراقب الرجلين أنها ستنفجر بالبكاء. لا يمكن أن يحدث هذا لها. لا يمكن أن يكون دومينيك لايول جاداً فيما ينويه من إبقائها هنا حتى يرتب أمر رحيله من البلد. إن هذا غير ممكن.

وانفجرت قائلة وهي ترتعش:

«لا أريد أن أرى غرفتي لا تستطيعان إبقائي سجينة هنا. هذا مستحيل!»

لوى دومينيك لايول شفتيه بشيء من القسوة وسأل بلهجة تهديد هادئة:

«وكيف تنوين أن تمنعيني؟»

«أنا... سأهرب!»

«مرة أخرى؟»

«سأذهب الى اقرب مزرعة أو قرية. سأتصل تليفونياً وأطلب النجدة!»

«لا توجد تليفونات هنا يا آنسة جيمس.»

«أقصد في القرية.»

سألها دومينيك لايول بهدوء:

«وهل تعرفين الطريق إلى القرية؟»

«لا أظن أنه يصعب العثور عليه.»

«في هذه الظروف؟»

وامتلأ حلقها بالبكاء:

«إنك مجنون... مجنون! لا أريد أن أبقى هنا. أريد فقط أن أذهب إلى باونيس وأعدك أني لن أخبر أحداً عنك. فقط دعني أذهب!»

«أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً يا آنسة جيمس».

اتجه معذبها الى بولت قائلاً:

«يجب أن تنقل السيارة غداً قبل أن يذوب الثلج».

«سأتولى ذلك في الصباح».

شعرت هيلين بحالة من اليأس الفظيع. وبدا أنه لا حل لهذا الموقف الغريب. لقد وضعت نفسها في هذا المأزق بما قالته. لو لم تخبره عن هروبها من والدها ولو لم تتعرف عليه ولو... ولو...

«لا تستطيع أن تمنعني من محاولة الهرب».

رد دومينيك لايول وهو يحرّك عضلات ظهره:

«لا أنصحك بذلك».

كان يبدو مرهقاً بشكل واضح وتبيّنت هيلين بوخزة أسى أن الوقوف لمدة طويلة سبب ارهاقه كان من المفروض أن تشعر بالسرور لأنه ليس قوياً الى الحدّ الذي يريدها ان تتخيله. ولكن هذا لم يكن شعورها. كان يتحرك في داخلها شعور خائن بالعطف. وتساءلت عن السبب الذي جعله يلفظ العالم الذي كان يعيش فيه لهذه العزلة الزاهدة.

وشعر بولت أيضاً بتعب سيده وبعدم الكلفة التي ولّدتها سنوات خدمته معه. قال له بلوم وقلق:

«إنه موعد علاجك يا سيدي ـ إذا نزلت إلى الدور الأرضي سألحق بك على الفور بعد أن أصحب الآنسة جيمس إلى غرفتها».

كان تعبير دومينيك لايول وهو ينظر إلى هيلين يتم عن السخرية من نفسه. وسألها بمرارة:

«هل ترين كيف الحال معي؟ إني مثل آلة مخربة تحتاج للتزييت دائماً ـ أليس كذلك يا بولت؟»

انفرجت شفتا هيلين ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول:

«إنك لست مسنّاً».

«على الأقل بضعة سنوات أكبر مما كنت عندما سمعت اسمي لأول مرة».

قال ذلك بضيق بينما تقلص وجهه من الألم.

«أرجو أن تعذريني...»

وخرج وهو يعرج بثقل وقد التوى فخذه في تشوه بشع. راقبه بولت وعلى وجهه تعبير الاخلاص والحب الكبير مما جعل هيلين تشعر بأنها دخيلة. وقامت أيضاً الفهدة وسارت خلف سيدها.

ثم استدار بولت نحوها وقال وهو يفك أزرار معطفة ويخلعه:

«لحظة واحدة يا آنستي... هلا أتيت معي؟»

كانت هيلين تريد أن تحتج ـ المفروض أن تحتج. يجب أن تكرر أن هذا جنون وأنه ليس من حقهم أن يبقوها برغم إرادتها وأنها ستجد طريقة للهروب. ولكنها بدلاً من ذلك راقبت بولت وهو يحمل حقائبها ثم تبعته صاعدة السلم الخشبي الواسع وقدماها تغوصان في السجادة ذات اللونين البني والذهبي التي تغطيه.

كان مطلع السلم كالصالة له نوافذ زجاجية. وفي منتصف الطريق إلى أعلى نافذة مستديرة تطلّ على خلفية المنزل. وكان من غير الممكن رؤية أي شيء من خلال الجليد المتساقط لكن لمعان الثلوج أعطى للمكان إضاءة خاصة.

وفي أعلى السلم دهليز يؤدي إلى اتجاهين. وسياج السلم يطل على غرفة الجلوس الواسعة.

وأخذت هيلين تتأمل الثريا الكريستال الرائعة.

وسار بولت في الممّر إلى يمين السلم مأراً بعدة أبواب قبل أن يقف أمام باب الغرفة التي ستكون غرفتها. فتح الباب وأضاء الأنوار. افسح لهيلين لتسبقه داخل الغرفة.

وكانت الأرض مغطاة بسجادة ناعمة بلون الزيتون تتناسب مع لون غطاء السرير الزيتوني والسكري وكذلك لون الستائر الطويلة الحريرية التي تغطي النوافذ. وكان الأثاث المكون من سرير وثلاث مرايا وخزائن كبيرة من خشب الماهوغني القاتم، أضخم قليلاً مما يجب لكنه مقبول في هذه الغرفة ذات السقف العالي. وهناك مدفأة تحت الشباك والغرفة دافئة بشكل مريح.

الشديد الذي شعرت به نحوه. تقول لنفسها إنه نفوروانها تكرهه وتحتقره. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يجذبها فهو كسيح. كما أنه لا ضمير له وقد سمح لنفسه أن يفسد خططها لمصلحته الخاصة.

ومع ذلك فهي تذكر كلّ التفاصيل الخاصة به، شعره الفاتح اللون وعينيه الصفراوين وجلده الغامق وجسمه القوي النحيل وعضلات فخذه التي كانت تبدو تحت قماش سرواله الضيق وحذاءه الطويل حتى ركبتيه والكرب الذي بدا فيه عندما شعر بالألم. أمسكت أنفاسها. ليس من المعقول أن تشعر بالعطف عليه ولكنها تفعل!

هزت رأسها والتف شعرها الأسود حول وجهها وفتحت الباب وخرجت. وكان الدهليز معتماً وخالياً. أضاءت نور غرفة النوم وسارت بتصميم نحو السياج على رأس السلم.

ونزلت إلى الصالة ونظرت حولها في حيرة. أي باب يؤدي إلى غرفة الجلوس؟ إنها لا تتذكر. اقتربت من أحد الأبواب وفتحته فوجدته يؤدي إلى غرفة ملابس فأغلقته بسرعة واتجهت الى باب آخر وهي تشعر كأنها «أليس في بلاد العجائب». كانت هذه غرفة طعام صغيرة فيها منضدة مستديرة يغطيها مفرش أبيض. هل هذه هي الغرفة التي ستتناول فيها طعام العشاء؟ وتنهدت ثم استدارت لدى سماع صوت خلفها. كان أحد الأبواب في الصالة قد فتح وظهر دومينيك لايول من خلاله والفهدة شيبا وراءه.

«هلا انضممت إليّ؟»

ودعاها بصوته العميق الجذاب الذي بدأت تتعود عليه في هذه الفترة القصيرة. هزت كتفيها بعجز وأطاعته. أفسح لها الطريق لتسبقه إلى غرفة الجلوس ثم أغلق الباب خلفها. كان قد غيّر ملابسه السوداء إلى قميص حريري بنفسجي اللون وسروال بيج فاتح وصدرية بلون أغمق قليلاً من السروال. وكان وجهه لا يبدو عليه التعب الذي بدا عليه من قبل. وفكرت هيلين أن بولت لابد قد قام بعمله، فله جسم مصارع ولكنه يمكن أن يكون محترف تدليك.

واتجهت ناحية المدفأة وهي تراقب بخوف الفهدة التي تبعتها. وكانت المدفأة

قد ملئت بالأخشاب في غيابها. والمنضدة التي تناولا عليها الشاي من قبل غطيت بغطاء جميل.

أشار دومينيك إلى الكرسي الذي جلست عليه من قبل قائلاً:

«تفضلي بالجلوس... هل أقدم لك مشروباً قبل العشاء؟»

كان يعاملها كأنها ضيفة منتظرة فشعرت بالاحباط. هل كان يتوقع أن تتصرف على هذا الأساس؟ هل ستتركه ينفذ خططه بدون مقاومة؟ كيف يجرؤ أن يتصور انه ليس لها أي رأي في الموضوع؟ قالت أول كلام خطر لها:

«في الواقع أنا لم أنزل لأتعشى معك! أريد مفاتيحي! مفاتيح حقائبي! ليس من حقك الاحتفاظ بها! لم أستطع حتى تغيير ملابسي بعد الحمام!»

عبس دومينيك وهو يدفع يده في جيب سرواله ويخرج حلقة مفاتيحها. وفحص المفاتيح باهتمام ثم قال:

«أسف طبعاً تريدين مفاتيح حقائبك. أرجو أن تبينيها لي...»

حدقت فيه هيلين بغضب للحظة ثم بدون أن تفكر في النتائج اندفعت محاولة خطف المفاتيح من يده. لم تكن تعرف بالضبط ماذا يمكن أن تفعل بها لو نجحت في أخذها. الفكرة الجنونية في الركض إلى سيارتها ومحاولة إدارتها مع عدم إمكانية ذلك، والهروب بها كانت فكرة غير عملية على الاطلاق. ولكن كان يجب عليها أن تفعل شيئاً، أي شيء لتثبت له أنها ليست عاجزة كما يتصوّر.

فشلت محاولتها فقد أطبقت أصابعه على حلقة المفاتيح. وباءت محاولاتها لانتزاعها بالفشل. إذا كانت قد تصورت أنه ضعيف أو أن إصابته أدت إلى عجزه عن رد الهجوم فقد تحققت على الفور من أن اعتقادها خاطىء. وعندما هاجمته كانت تتوقع أن يفقد توازنه، لكن هذا لم يحدث وكان جسمه القوي يقاوم بشدة. كما أنها لم تنتبه على الاطلاق للفهده التي كانت تراقبها بعينين متحفزتين ذكيتين والتي امتنعت عن التدخل بأمر من سيدها. وبينما هي مستمرة في محاولة انتزاع مفاتيحها من يديه لم تستطع إلا أن تشعر بوجود دومينيك لايول. كانت تشعر بسخونة جسمه وبالعطر الذي يفوح منه. ولكن عندما نظرت إليه ورأت الابتسامة الساخرة القاسية على وجهه، انسحبت بعيداً بصرخة خانقة:

«أنت... أنت متوحش! إنها مفاتيحي وأنا أريدها».

سألها وقد ارتفع حاجباه:

«ألا تظنين أنك تتصرّفين بغباء؟ عرضت أن أعطيك المفاتيح التي تريدينها».

وحركت رأسها يميناً ويساراً بشعور العجز وقالت بصوت مهزوم:

«لماذا تفعل ذلك؟ لماذا لا تتركني أذهب؟»

سألها بسخرية:

«الليلة؟»

«لا غداً... أرجوك».

قال بازدراء:

«لا تستعطفيني ـ أنا أحتقر الضعف».

شعرت هيلين كأنه صفعها. ضغطت بيدها على حلقها واستدارت بعيداً عنه وهي تستند على ظهر الأريكة لتستعيد رباطة جأشها. وكانت تشعر بعينيها تؤلمانها لشدة رغبتها في البكاء. شعرت بالضياع والوحدة وعدم القدرة على التفكير المتزن وحتى النظرة الشريرة التي كانت شيبا توجهها اليها لأنها تجرأت وتحدت سيدها لم تستطع أن تثيرها.

«خذي اشربي هذا!»

دفع دومينيك لايول كوباً في يدها.

نظرت إلى الكوب بلا تعبير وسألت:

«ما هذا؟»

«انه ... سيساعدك على أن تستعيدي تفكيرك السليم».

واجتاحتها الرغبة في إلقاء الكوب بما فيه على الأرض لكنها كانت محتاجة لشيء ينعشها. فرفعت الكوب الى شفتيها المرتعشتين وشربت منه قليلاً ثم شربت الباقي دفعة واحدة. لسعها الشراب في حلقها فسعلت وصعدت الدموع إلى عينيها ولكنها شعرت بالدفء يسري بداخلها.

ودار دومينيك لايول حول الأريكة وبدون أن ينتظرها جلس في الكرسي قرب النار المتقدة ثم سكب لنفسه كأساً من زجاجة على الصينية بجانب كرسيه،

أخذ سيكاراً رفيعاً من صندوق على رف الكتب بجواره. وأشعله باستمتاع واضح من المدفأة بواسطة شمعة رفيعة. ووقفت هيلين تراقبه من وراء الأريكة وتتعجب لعدم اهتمامه الشديد رغم علمه بلا شك بحالتها.

وبعد أن أشعل سيكاره كما يريد وضعه بين أسنانه وأخرج مفاتيحها من جيبه وفحصها جيداً ثم استخرج اثنين منها وألقى إليها بالباقي، ولم تكن سريعة بما يكفي لالتقاطها فسقطت المفاتيح على الأرض أمامها. انحنت لتلتقطها وهي تشعر بالمهانة ولاحظت أنه أخذ مفاتيح السيارة وقال وهو يفرد ساقيه الطويلتين أمامه:

«والآن... ألن تجلسي؟»

«لا سأذهب الى غرفتي. وآمل أن تكون في الصباح قد عدت إلى رشدك».

رد بابتسامته الساخرة التي أصبحت تتوقعها وهو يخرج سيكاره من فمه:

«لا تشعري بخيبة الأمل إذا لم أفعل!»

«أنت... حقير!»

«رأيك فيّ لا أهمية له».

وراقبها وهي تسير نحو الباب ثم قال:

«ألم تسمعي أن الحرب تعتمد على بطون قوادها؟ وإذا لم تتناولي عشاءك فستكونين في الصباح جائعة جداً».

وتخشبت هيلين، فعلى الأقل فيما يختص بالطعام، تستطيع أن تقرر لنفسها.

«لا أستطيع أن ألمس طعامك!»

قالت وغضبها يزيد من تصميمها:

«لو أكلته سأمرض».

وقبل أن تخرج بعد هذه الكلمات انفتح الباب ودخل بولت يحمل صينية ـ لم تستطع أن ترى كل ما عليها ـ لكن رائحة صلصة الكاري كانت واضحة. ولاحظت إبريقاً من القشدة مع فطيرة فواكه لذيذة على جانب الصينية.

ونظر الخادم إلى هيلين باندهاش ثم قال:

«فكرت في أن أقدم لكما العشاء هنا يا سيدي فالليلة باردة جداً».

قال دومينيك وهو يبتسم بسرور أكثر من العادة:

«إنها فكرة حسنة، هلا أكلت معي يا بولت».

وألقى بولت نظرة على هيلين وهي ما زالت تحوم بجانب الباب وقد خدرتها رائحة الطعام. بدأت الآن فقط تشعر بالجوع الشديد وأسفت لتصرفها المتسرع في رفض الطعام. وقال بولت:

«ولكني ظننت أن الآنسة...»

وهز دومينيك رأسه قائلاً:

«الآنسة جيمس ليست جائعة يا بولت. قالت إن الطعام سيمرضها».

ونظر إلى وجه هيلين المتردد بعينيه القاسيتين فحركها للرد:

«نعم... هذا صحيح... انا أهتم باختيار الشخص الذي أتناول الطعام معه».

ثم خرجت وصفقت الباب وراءها.

ووقفت لحظة في البهو متوقعة أن يتبعها ليرد على تصرفها لكن كل ما سمعته هو انفجار في الضحك من دومينيك لايول. وتحققت من أن بولت هو الذي سيستعمل الكوب الآخر على الصينية.

٣ ـ النوبة

كان سرير هيلين مريحاً جداً، وذكرتها زجاجات المياه الساخنة بطفولتها عندما كانت والدتها تضعها في السرير وتحكي لها قصة قبل النوم.

لم تكن تتوقع أن تنام، لكن التعب عمل مفعوله! وعندما استيقظت كانت الغرفة مليئة بضوء الشمس وانعكاس الثلج. وللحظات لم تستطع أن تتذكر أين هي ولكن على الفور عادت كلّ الذكريات تتزاحم عليها وبرغم ذلك لم تكن تعرف بالضبط أين هي عدا أنها في منزل في منطقة البحيرات وتذكرت مضيفها وكل أحداث الليلة الماضية الغريبة.

ونظرت الى ساعتها: التاسعة والنصف تقريباً. طرفت عيناها باستغراب، فقد نامت أكثر من اثنتي عشرة ساعة. ودفعت الأغطية بعيداً وقامت من سريرها وسارت نحو النافذة، فالآن وفي ضوء النهار يمكنها أن ترى المكان وقد ترى منازل أخرى.

لكن المنظر أمامها كان مخيباً للآمال، فكل ما استطاعت أن تراه هو حديقة خلفية مغطاة بالثلوج ووراءها حقول بيضاء ايضاً. أما تحت نافذتها مباشرة فكان هناك فناء قام شخص بتنظيفه ولا شك أنه بولت، وكانت هناك آثار أقدام تدل على أن شخصاً ما قد خرج. أغلقت الستائر ونظرت الى الغرفة حولها. لم تكن أقل جمالاً في ضوء النهار برغم أن الملابس الخارجة من حقائبها كانت تبدو غير منظمة. كانت متضايقة في الليلة الفائتة ولم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أن تجد قميص نومها وتدخل في الفراش. وتجاهلت الفوضى في حقائبها ودخلت الحمام لتأخذ دوشاً. ولكنها لم تجد دوشاً في الحمام فاغتسلت وعادت الى الغرفة لترتدي

ملابسها. وبينما كانت تلبس سروالاً برتقالياً مضلّعاً سمعت طرقة خفيفة على الباب. وخفق قلبها بشدة ووقفت ساكنة للحظة تتساءل من الطارق.

ثم سمعت صوت بولت المطمئن:

«آنسة جيمس؟ آنسة جيمس. هل استيقظت؟»

«نعم... ماذا تريد؟»

«أحضرت لك إفطاراً يا آنسة. فكّرت أنك قد تكونين جائعة».

ترددت هيلين. خطر لها أن تأمره بالذهاب وأن يخبر سيده أنها مضربة عن الطعام حتى يتركها تذهب ولكنها فكرت أن هذه الطريقة لن تجدي مع رجل مثل دومينيك لايول. إنه يستطيع أن يتركها حتى تسقط من الاعياء قبل أن يفكر في الاهتمام بها. وحتى في هذه الحالة فهي تشك أنه سيستسلم لطلباتها.

فصاحت وهي تسحب بسرعة بلوفر أخضر وتدخله في رأسها:

«لحظة واحدة».

وفتحت الباب وهي تخرج شعرها من فتحة البلوفر. كان بولت أمام الباب بجسمه الضخم الذي أصبح معروفاً لها وأكمام قميصه مطوية فوق ذراعيه وقد ظهرت عضلاته البارزة من تحتها. لم يكن يشبه مدبرة منزل ومع ذلك فالصينية التي أحضرها ووضعها على المنضدة قرب سريرها كانت منسقة أحسن تنسيق.

وقال بابتسامة ساخرة:

«كورنفليكس وبيض وشرائح الخبز والمربى وقهوة. هل هذا يعجبك؟»

نظرت إلى الصينية ثم إلى بولت واحمرّ خدها قليلاً ثم قالت بصراحة:

«عظيم ـ إنني أموت من الجوع!»

قال بولت بلهجة جافة:

«السيد لايول كان يظن ذلك».

أطبقت شفتا هيلين:

«أوه... هو يظن ذلك؟»

وتنهّد بولت ثم قال:

«الآن هل ستطلبين مني أن آخذ كل شيء ثانية؟»

ترددت هيلين ثم قالت بتمرّد:

«ليتني افعل...»

«هل ستقطعين أنفك لتغيظي وجهك؟ السيد لايول لن يهمه إذا جوّعت نفسك».

وهزّت كتفيها قائلة:

«أعلم ذلك».

«إذن لا تكوني عنيدة. تناولي إفطارك وسأحضر لآخذ الصينية فيما بعد».

نظرت هيلين الى الخادم الضخم بشك.

«إلى متى يريد...»

ورفضت أن تنطق اسم السيد لايول:

«إلى متى ينوي إبقائي هنا؟»

سار بولت نحو الباب وقال ناصحاً وهو يخرج:

«تناولي إفطارك يا آنسة».

بعد أن أغلق الباب نظرت هيلين بعجز نحو النوافذ. لماذا افترضت أن بولت يتعاطف معها؟ كان يجب أن تعرف أنه لا فائدة من كسب ثقته.

وفي اي حال فإن رائحة الطعام في هذه اللحظة كانت أقوى من أن تقاوم. رفعت الأغطية واندفعت تأكل بنهم. كان إفطارها المعتاد، الخبز المقدد والقهوة لكنها اليوم أكلت كل ما أحضره بولت وكانت القهوة جيدة فشعرت بالشبع الطيب. بعد أن انتهت من طعامها قامت وذهبت مرة أخرى الى النافذة. ما المفروض أن تفعل الآن؟ قال بولت إنه سيحضر ليأخذ الصينية فهل هذا يعني أنها يجب أن تبقى في غرفتها؟ كان كلّ كيانها يتمرّد على هذه الفكرة. وبرغم كل الجوانب السيئة في وضعها فإن الصباح كان جميلاً، وكانت تتمنى أن تخرج في الهواء الطلق... فكرت في الفندق الصغير في باونيس الذي كانت تنوي الذهاب إليه. كانت تنوي أن تقضي أيامها في التنزه وقيادة السيارة وتتمتع بالتحرر غير العادي من سيطرة والدها المتزايدة. لكنها الآن تبدو في وضع أسوأ وقيود أشد كثيراً مما يمكن أن يتصوّر والدها.

وجعلها تفكيرها في والدها تتساءل إذا كان قد استلم الكلمة التي كتبتها له. لقد وضعتها في صندوق البريد في لندن اليوم السابق وهي في طريقها إلى الشمال. لم تكن تريد أي أختام بريدية تبين وجهتها، أما الآن فهي تتمنى لو لم تكن قد أخفت آثارها بكل هذه الدقة.

لن يحلم أحد بالبحث عنها هنا، وحتى لو فكروا فكيف سيجدونها؟ إذا كان دومينيك لايول قد عاش هنا في عزلة السنوات الفائتة فإن أحداً لن يفكر في تعكير عزلته الآن. وفي الواقع انها تشك أن أحدا يعلم بوجوده أصلاً...

وقطّبت جبينها لكن لابد أن أحداً يعلم بوجوده. لابدّ أن هناك من يمدهم بالطعام. وماذا عن البريد؟ ارتفعت روحها المعنوية قليلاً. إذا كانوا سيبقونها هنا فلابد أنهم سيحتاجون لمؤن أكثر وسيلاحظ من يموّلهم بمواد البقالة ذلك.

تنهّدت، ولكن بولت يستطيع أن يقول إن لديهم ضيفاً ولن يشك أحد في كلامه. إن فرصتها الوحيدة في هذا الاتجاه تبدو في حضور أحد الى المنزل، ساعي البريد على سبيل المثال.

وأخذت تفكر في طرق تلفت النظر إليها. رافضة أن تفقد الأمل. كانت ذكية بما فيه الكفاية لتعرف أن دومينيك لن يسمح لأحد أن يراها، لذلك كان يجب عليها أن تبحث عن المساعدة بطريق آخر. يمكنها مثلاً أن تكتب ورقة وتلقيها من النافذة العليا... لا... ستختفي تحت الثلوج أو سيطيّرها الهواء. وقد تكون هذه فكرة جيدة... لكن شعوراً باليأس. ملأنفسها فأي عنوان يمكن أن تكتبه؟ إنها لا تعرف أين هي ولا أين يوجد هذا المنزل! تفكيرها لا يسفر عن نتيجة. إنها لا تستطيع حتى أن تتذكر اسم القرية التي سألت فيها عن اتجاهها اليوم السابق.

عاودها الأمل مرة أخرى. نعم الناس في تلك القرية، مدير مكتب البريد قد يتذكر سيدة صغيرة غريبة تسأل عن الطريق. بالتأكيد لا يأتي غرباء كثيرون إلى هذه المنطقة في هذا الوقت من السنة. نعم إنها متأكدة أنه لو سئل سيتذكر وسيدلهم على الاتجاه الذي ذهبت فيه.

وتقلصت يداها في جيبيها. إنها تبحث عن ذرة أمل في موقف يائس. ولكنها لا تخدع أحداً. كل شيء متوقف على بحث والدها عنها، وقد يقرر أن ينتظر ليرى إلى

متى ستتغيب عن المنزل. ولكن إذا بحث عنها واستنفد الأماكن التي قد يتصوّر أن يجدها فيها، ثم فجأة تذكر الاجازة التي قضياها في منطقة البحيرات واتجه شمالاً ووجد القرية التي سألت فيها...

وسمعت طرقة على الباب مرة ثانية:

«نعم».

فتح بولت الباب وأطل برأسه:

«هل انتهيت؟»

هزّت هيلين رأسها وأشارت للصينية:

«نعم أشكرك كان الطعام لذيذاً ـ وقد أكلته بنهم».

وضحك بولت:

«هذا حسن. كل شيء يبدو أكثر إشراقاً عندما تكون المعدة مليئة».

«هل تظن ذلك؟»

وفتح بولت الباب ودخل.

«بلا شك ـ هل ستنزلين إلى الطابق الأرضي؟»

«هل مسموح لي بذلك؟»

«يمكنك أن تفعلي ما تريدين يا آنسة».

«هل هذا صحيح؟ أين... أين مخدومك؟»

ورفع بولت الصينية:

«إنه في المكتبة يا آنسة ـ يستحسن عدم إقلاقه».

ونظرت إلى أعلى:

«هل تصوّرت أنني قد أقلقه؟»

وهزّ بولت كتفيه ثم نظر إلى حقائبها غير المنظمة ثم قال:

«سأتولى أمر اغراضك فيما بعد عندما أرتب السرير».

«لا... لا... تتعب نفسك».

«إن ذلك لا يتعبني يا آنسة».

«أستطيع أنا أن أرتبها».

لم يرد بولت على ذلك وسار نحو الباب:

«إنه يوم جميل ـ ألا تحبين الخروج؟»

وحملقت فيه هيلين:

«في الخارج؟ ماذا يقول الرجل في ذلك. قد أهرب...»

كان تعبير بولت ساخراً:

«لا أنصحك بالمحاولة يا آنسة. إن شيبا مدربة على اصطياد الغزلان ولا أحب أن أراك فريسة لها».

صاحت هيلين رغما عنها:

«إذن من حسن الحظ أنك لم تكن معنا بالأمس».

قالت وهي تقشعر عند تذكرها لحوادث الأمس المخيف.

«نعم لقد سمعت يا آنسة».

قالها بولت وهو ينصرف بإيماءة خفيفة برأسه.

ونظرت هيلين حول الغرفة ثم تبعته على السلالم العريضة إلى البهو المشمس في الطابق السفلي. ودخل بولت من باب مغطى بالمخمل الأخضر خلف السلالم فدخلت بدون تفكير وراءه.

ووجدت نفسها في مطبخ فسيح. الأرض المغطاة بالخشب تلمع من كثرة تنظيفها. وبرغم أن المطبخ كان قد تم تجديده بألواح صلب وبحوض من الصلب إلا أن الفرن الضخم الذي كان أداة الطبخ الوحيدة فيها مضى بقي كما هو، كذلك المدفأة من الرصاص الأسود، والنار تزأر فيها. وكان هناك باب مفتوح يؤدي إلى المخزن.

ووضع بولت الصينية على لوح التصفية وبدأ يضع الأطباق المستعملة في الحوض. ونظر إلى هيلين وهو يبتسم قائلاً:

«لا بد أنك تظنين أن هذا العمل غير معتاد بالنسبة الى الرجل. أليس كذلك؟»

هزّت هيلين كتفيها بلا تحديد. وذهبت ناحية المنضدة الخشبية النظيفة التي تتوسط المطبخ. ثم قالت بصراحة:

«لا أظن أنه عمل غريب بالنسبة الى رجل هذه الأيام ولكني أعترف أنك لا تبدو

الشخص المناسب لهذا العمل».

وضحك بولت قائلاً:

«لا... لا أظن أني كذلك».

ونظرت إليه هيلين:

«ولكن هذا لم يكن عملا دائماً... أقصد أن هذا ليس عملك الوحيد. أليس كذلك؟»

«إنه الآن».

وقال بولت وهو يغمس يديه في صابون الحوض:

«ولكن أظن يمكنك أن تعتبريني صاحب سبع مهن. ففي البداية كنت في الجيش والتحقت به وأنا مازلت صبياً. ثم عندما تركت الخدمة عملت مصارعاً لفترة، ولكن هذا العمل كان مملاً ولم يعجبني. ثم أصبحت ميكانيكي سيارات».

ثم توقف لحظة واستطرد:

«والآن أنا مدبر منزل».

وتجرأت هيلين وقالت:

«إنك تحب مخدومك كثيراً... أليس كذلك؟»

قال بهدوء وتأكيد:

«إنه رجل عظيم».

قالت هيلين:

«نعم... ولكن اعذرني إذا احتفظت بحكمي لنفسي ـ وهل تعرفه من مدة طويلة؟»

«من حوالي عشرين سنة».

«ولكنك لم تعمل لديه كل هذه المدة؟»

«لديه أو من أجله هذا لا يهم. كان والده هو الضابط الذي أعمل تحت إمرته في الجيش».

«أه... فهمت».

وذهبت هيلين نحو الحوض. كانت النوافذ العريضة تطلّ على فناء خلف المنزل وعلى جانبيه بعض السقائف والمباني البسيطة.

وقالت وهي تحاول أن تجعل سؤالها يبدو عادياً:

«اخبرني... كيف تحضرون المؤن، الأشياء الطازجة مثل اللبن والبيض، وماذا عن الرسائل؟»

«بالنسبة الى الرسائل فإننا نحضرها من صندوق بريد خاص بنا».

هكذا أجاب بولت بهدوء محطماً كل آمالها في هذا الاتجاه.

«ولدينا بقرتان وبعض الدجاج... وفي الصيف نزرع خضرنا وفاكهتنا ونجلّدها لنستعملها فيما بعد. لدينا اكتفاء ذاتي. وحتى خبزنا فأنا أقوم بخبزه. لكن لماذا تسألين؟»

«الآنسة جيمس تبحث عن طرق لتتغلب بها علينا يا بولت».

هكذا علّق صوت متكاسل ساخر من خلفهما، واستدارت هيلين فوجدت دومينيك لايول يستند بلا مبالاة على الباب. كان قد عاد إلى ملابسه السوداء. وبرغم لون شعره الفاتح كان مظهره شيطانياً لدرجة مقلقة. وأحنى رأسه بأدب نحو هيلين واستطرد قائلاً:

«صباح الخير يا آنسة جيمس. أظن أنك نمت جيداً. أخبرني بولت أنك كنت مستعدة لتناول إفطارك. هل استمتعت به؟»

كانت هيلين تتمنى لو استطاعت أن تقول له إنها لم تذق طعامه ولكن هذا كان مستحيلاً بالطبع، وبدلا من ذلك حاولت أن تتخذ موقفاً متحدياً.

«ماذا تظن أن والدي سيفعل بالضبط عندما يكتشف بعد حين أنك استبقيتني هنا رغماً عني؟»

اعتدل دومينيك وقال:

«أتصوّر أن هذا سيخلق متاعب لك».

صرخت هيلين بدهشة واستنكار:

«لي ـ أنا! تقصد لك!»

«لماذا يخلق متاعب لي؟ أنا لن أكون موجوداً هنا بل أنت».

تحمست هيلين قائلة:

«هل تظن أنه سيترك الموضوع هكذا ببساطة؟ إنه سيجدك أينما كنت».

قال دومينيك بسخرية:

«حقاً! اعذريني إذا كنت أشك بقدرات والدك في مجال البحث والتحري. إذا كان وسط الصحافة بأكمله لم يستطع اكتشاف مكاني منذ عدة سنوات فلا يمكن أن أشعر بقلق كبير بخصوص جهود والدك».

«يستطيع أن يعطي القصة للصحافة! ويستطيع أن يستأجر أي عدد من المخبرين».

«هل يستطيع ذلك؟»

وقال مفكراً:

«هذا جدير بالاهتمام وخاصة أنه يصدر من إنسانة كانت بالأمس فقط تحاول أن تؤكد لي أنني إذا تركتها تذهب فلن تخبر أحداً بمكاني».

اندفع الدم في وجنتيها وردت قائلة:

«كنت أعني ما أقول؟»

«حقاً! ولكنك الآن غيرّت رأيك».

«نعم... لا... أقصد...»

وبحثت عن الكلمات:

«أحاول فقط أن أبيّن لك أنك إذا وقفت في طريق والدي فستدفع الثمن».

«تهديدات يا آنسة جيمس؟»

وهزّت هيلين رأسها بعجز:

«لا توقعني في الكلام. إذا تركتني أذهب سأنسى أنك هنا... أما إذا لم تفعل... فأنا لست مسؤولة عن النتائج».

ولوى دومينيك شفتيه:

«نعم... هذا طريف جداً، بالتأكيد».

ثم نظر إلى بولت قائلاً:

«هل تظن أننا نستطيع أن نشرب القهوة، أود أن أستريح قليلاً».

ووافق بولت قائلاً:

«بالطبع».

وجرّت هيلين قدميها وهي تشعر كطفلة متعبة.

نظر دومينيك إلى وجهها العابس واقترح بهدوء:

«هل تشربين القهوة معي؟»

حملقت فيه وردت بوقاحة:

«لست عطشى!»

«كما تشائين».

هزّ دومينيك كتفيه وخرج وترك الباب ينغلق وراءه. وعندما خرج تمنت هيلين لو لم تكن قد تصرفت بهذا التعجل. فرصتها الوحيدة في الهرب تكمن في محاولة إقناعه بتغيير رأيه وطالما انها تتصرف كتلميذة صغيرة مدللة فلن تتمكن من الوصول إلى هدفها.

وجلست بضيق على طرف أحد الكراسي الخشبية أمام المنضدة النظيفة وأخذت تراقب بولت وهو يعد القهوة ويضع فنجاناً وحليباً وسكراً على صينية من الفضة.

واتجهت نظرة بولت إليها مرّة، ثم كأنه شعر بالشفقة عليها قال:

«هل تريدين تقديمها؟»

نظرت إليه قائلة:

«ماذا تعني؟»

«تعرفين ما أعني. صينية القهوة هل تريدين أخذها للسيد لايول؟»

هزت كتفيها ثم قالت بضيق:

«إذا أردت».

نظر بولت إلى وجهها المكفهر وقال:

«هل تريدين نصيحة مني؟»

فقطبت جبينها:

«أي نوع من النصيحة؟»

«لا تكثري من التهديدات. السيد لايول ليس ذلك الصنف من الرجال الذي يتقبل هذا الموقف ببساطة».

«آه... حقاً؟»

ورفضت هيلين اقتراحه بأن السيد لايول يجب أن يطاع دائماً.

«وماذا تريدني أن أفعل؟ هل أجلس وأنتظر حتى يقرر أن يتركني أذهب؟»

«قد يكون هذا افضل شيء تفعلينه».

«لابد أنك تمزح!»

وهز بولت كتفيه العريضتين:

«لا تقللي من شأنه يا آنسة جيمس، لا تظني خطأ أن إصابته تنقص من رجولته».

احمرّ خداها وقامت واقفة:

«لا أفهم ماذا تعني».

«أعتقد أنك تفهمين».

وقال وهو يصبّ القهوة:

«إن كونه يفضل العيش هنا بمفرده لا يعني أنه لا يشعر بالاحتياجات الطبيعية لأي رجل!»

أحكمت قبضتها وقالت بغيظ:

«كنت أظن أنك تستطيع أن تسدّ جميع احتياجاته يا بولت!»

نظر إليها بولت نظرة طويلة متفحصة:

«لا يا آنسة جيمس. إن السيد لايول ليس ذلك النوع من الرجال».

لم تعرف هيلين أين تخفي وجهها. لم تتصرف بهذه الطريقة السيئة من قبل. وكون بولت الذي عاملها بمنتهى الطيبة والعطف كان هو الذي تحمل ثورتها وسوء أدبها جعلها تشعر بالخجل الشديد.

وصاحت وهي تضغط يديها على خدّيها الملتهبين:

«إني آسفة، إنه خطأ لا يغتفر».

وضع بولت الغطاء على إبريق القهوة ودفع الصينية أمامها عبر المنضدة وقال برقة:

«أعصابك مشدودة. أرجو أن تهدئي نفسك. لا شيء من السوء بالدرجة التي

نتوقعها. والآن هل ستدخلين القهوة للسيد لايول؟ ستجدينه في غرفة الجلوس وقد وضعت قدحين من باب الاحتياط».

سقطت يداها إلى جانبيها وابتسمت قليلاً:

«إنك لا تستسلم أبداً. أليس كذلك؟»

«لنقل إني متفائل بطبعي. هل تعرفين من أي باب تدخلين؟»

هزت رأسها بالايجاب:

«أظن ذلك».

التقطت الصينية وسارت الى باب المطبخ ثم استدارت قائلة:

«أشكرك يا بولت...»

«إنه جزء من عملي يا آنسة».

عندما فتحت هيلين باب غرفة المعيشة وجدت دومينيك لايول مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. ولكنه فتحهما عند دخولها وعندما رأى أنها هي التي تحمل صينية القهوة أنزل ساقيه إلى الأرض وحاول القيام. ولكن وجهه تقلّص من المعاناة وسقط مرّة أخرى على الأريكة ويده تضغط على جبهته من الألم.

وحبست هيلين أنفاسها ثم وضعت الصينية وأسرعت إليه قائلة بقلق:

«هل أنت بخير؟»

سقطت يده إلى جانبه وأطبق فكّه بمرارة، وهو ينظر إليها ثم قال بتجهّم:

«نعم... إني على خير ما يرام ـ أشكرك».

وقفت هيلين بتردد تحدق فيه وتفرك يديها بقلق ـ كان يبدو شاحباً ومتعباً وتمنت لو استطاعت أن تفعل شيئاً من أجله ـ إن رؤيتها له في هذه الحال لم تخفّف بأي شكل من ضيقها برغم اعتقادها ان ذلك كان المفروض أن يكون شعورها ـ إنهما عدوّان برغم كل شيء وكان المتوقع أن تشعر بالسعادة لأن القدر يقتصّ منه بطرق أخرى. ولكن هذا لم يكن شعورها. كل ما شعرت به هو إحساس مقلق بالعطف عليه ووعي متزايد بانجذابها إليه.

صاح بخشونة:

«بحق الله لا تحملقي فيّ هكذا كأنك لم تري مثل هذه البشاعة من قبل! إنني أعاني من الصداع النصفي ـ هل تفهمين؟ ـ ضمن أشياء أخرى!»

ولوى شفتيه... ثم تحركت هيلين بقلق تحت نظرته الصفراء مع أنها رأت إنساني عينيه يصبحان كالزجاج وحبات العرق تنضح على جبهته بعد المجهود الذي قام به في محاولة القيام.

وقالت محاولة مساعدته:

«هل هناك شيء أستطيع عمله؟»

نظر إليها باحتقار ثم سألها:

«ماذا تقترحين؟ رصاصة في رأسي أم طعنة؟»

أجابت بسرعة وهي تنظر بعجز حول الغرفة:

«لا هذا ولا ذاك ـ هل لديك دواء تتناوله؟ أستدعي بولت؟»

وافق أخيراً وهو يغلق عينيه:

«لديّ أقراص».

«أين هي؟»

«لست مضطرة لأن تساعديني ـ بولت يمكنه إحضارها».

صاحت فيه:

«بحق السماء ـ سأحضرها ـ إني أريد ذلك ـ فقط أخبرني أين هي».

وفتح عينيه قليلاً وهو يسند رأسه على الوساند ـ للحظة نظر اليها من خلال رموشه الكثيفة. كانت تجربة مقلقة ـ جعلت أطرافها تتخاذل والدم يجري بسرعة في عروقها».

ثم أغلق عينيه مرة أخرى وقال:

«إنها في زجاجة في الدرج العلوي لمكتبي».

تحركت هيلين ثم توقفت بتردد. مكتبه؟ أين مكتبه؟ هل كان يعني ذلك المكتب في ركن الغرفة. المكتب الذي رأت صورة الحادث فوقه؟ عندما بدأت تسير نحوه قال بتعب:

«مكتبي في غرفة المكتب».

«غرفة المكتب!»

تردّدت هيلين. أين غرفة المكتب؟ فتحت فمها لكنها صمتت. لا بد أنها تفتح على الصالة وقد أصبحت تعرف أغلب الأبواب المطلة على الصالة.

خرجت بسرعة من الغرفة سعيدة لأن القهدة لم تكن موجودة ثم نظرت حولها. ولاحظت بسرور أنه لم يكن هناك سوى باب واحد عدا الأبواب المعروفة لديها. أدارت المقبض ونظرت الى الداخل. هناك مكتب ضخم من خشب الماهوغني. عليه كثير من الأوراق والكتب، وعلى أحد جوانبه آلة كاتبة. لكن المكتب لم يكن هو الذي استحوذ اهتمامها. بل فوق إفريز الشباك ـ مخبأة تقريباً بالستائر الحمراء الثقيلة ـ آلة التليفون!

وكان أول ردّ فعل لها هو أن ترفع السماعة وتستغيث ولكن الأحداث الأخيرة علمتها أن تكون أكثر حذراً. إذ لو تأخرت ولو قليلاً لاجراء مكالمة تليفونية فإن دومينيك لايول سيشك فيها وإذا حضر وراءها... كما أن بولت لا بد سيحضر ليأخذ الصينية، فإذا علما أنها تنبهت لوجود التليفون لن يكون لديها الفرصة لاستعماله ولكن إذا أظهرت أنها لم تره...

ابعدت عينيها عن تلك الصلة المغرية بالعالم الخارجي. ثم ذهبت الى المكتب وجلست على الكرسي الجلدي البني خلفه. لا عجب إذن أنه لم يكن يريدها أن تحضر له الأقراص. ولكن من الواضح أن حاجته الشديدة تغلبت على حسن تقديره. وتذكرت وجهه الذي مزقه الألم ففتحت درج المكتب الاعلى على الجانب الأيمن. وبرغم أن مشاعرها كانت ثائرة ضده لموقفه منها لم تستطع تجاهل آلامه.

ونظرة سريعة إلى الدرج الذي فتحته أكدت لها عدم وجود زجاجة الأقراص فيه. أغلقته ثانية ثم فتحت الدرج الأيسر فوجدته مليئاً بالملفات ولكن في أقصى الداخل وجدت ما كانت تبحث عنه: زجاجة بنية فيها أقراص بيضاء.

ونظرت بدون فهم إلى الأوراق المكوّمة على المكتب ثم أغلقت الدرج وقامت لتذهب. عندما وصلت الى الباب كان بولت خارجاً من المطبخ. تخاذلت ركبتاها عندما فكّرت أنها لو استعملت التليفون لضبطها بولت. وقطّب جبينه عندما رآها تغلق باب غرفة المكتب وقال:

«هل تبحثين عن شيء يا آنسة؟»

احمرّ خداها وبدا عليها الشعور بالذنب. ورفعت يدها بالزجاجة وقالت وهي تشير ناحية غرفة الجلوس متظاهرة بالثبات:

«مخدومك مصاب بصداع نصفي وقد أحضرت له الدواء».

قال بولت وقد بدا عليه الاهتمام:

«أه... سأحضر بعض الماء».

تحرّك كتفاها رغماً عنها وقالت برعشة:

«إذا أردت».

وعاد بولت الى المطبخ ودخلت هي غرفة الجلوس. كان دومينيك لايول ما زال مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. أجبرت نفسها أن تتذكّر أن هذا هو الرجل الذي يبقيها هنا رغماً عنها.

وسارت نحو الأريكة ونظرت إليه قائلة بهدوء:

«ها هي الأقراص. بولت سيحضر لك بعض الماء».

وفتح عينيه التعبتين. وقال وهو يرفع نفسه ويأخذ الزجاجة:

«أشكرك. إنها غلطتي لقد أجهدت نفسي في العمل».

وقطبت هيلين وهي تراقبه يفتح الزجاجة ويخرج منها قرصين:

«على العمل؟»

ونظر إلى أعلى ورد:

«نعم ـ في العمل ـ هل ظننت أني أقضي وقتي بالتكاسل؟»

وهزت كتفيها وسارت بعيداً عن الأريكة. كانت نظراته تتغلغل فيها من هذه المسافة القريبة حتى وهو في حالة ضعفه.

وأجابت غير صادقة:

«أنا... لم أفكر في الأمر».

وانفتح الباب ودخل بولت وهو يحمل إبريقاً وكوباً، وسار على الفور إلى الأريكة ونظر إلى دومينيك برقة ونفاد صبر.

قال وهو يصبّ له بعض الماء:

«خذ هذا وأظن أنك يجب أن تستريح في الفراش».

ألقى دومينيك الأقراص في فمه ثم ابتلعها ببعض الماء وأعاد الكوب لبولت قائلاً بجفاف وهو يمسح فمه بظهر يده:

«لا أظن ذلك».

ونظر إليه بولت بلوم:

«أنت تعرف أنك يجب أن تذهب الى الفراش».

ونظر دومينيك بسخرية في اتجاه هيلين وقال:

«ماذا تقول؟ وأترك ضيفتنا تتناول القهوة بمفردها؟»

وشهقت هيلين بسخط ولكن بولت هز رأسه قبل أن تقول شيئاً وقال بحزم:

«إذن بعد القهوة».

ولكن دومينيك أغلق عينيه مرة أخرى كأن مجرد فتحهما يتعبه ثم قال بتسليم:

«حسناً ـ سأخبرك».

وتنهد بولت وبسط يديه نحو هيلين في حركة عاجزة. احست بشعور سخيف من التحالف مع بولت في قلقها المشترك على الرجل. وقال دومينيك فجأة وبعنف كأنه على علم تام بالعلاقات الصامتة بينهما:

«بحق السماء ـ كفّا عن هذه الاشارات التي تخفيانها عني».

وسار بولت فجأة نحو الباب وهو يقول:

«سأحضر بعد خمس عشرة دقيقة».

بعد انصرافه وقفت هيلين في مكانها تتساءل: «لماذا لم تذهب هي أيضاً». فمن الجائز أنه سيذهب الى فراشه لأن هذا في النهاية هو أضمن علاج للصداع النصفي. مجرّد التفكير فيه في فراشه جعل السخونة تسري في جسمها. كان ضعفه المؤقت مغرياً بشكل خطير. وأجبرت نفسها أن تتذكر أنه كالحيوان المفترس الذي يحتفظ به ويدلله. فهو بلا رحمة ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته. ومع ذلك كان قميصه مفتوحاً حول رقبته. وكانت ترى بدايات الشعر الذي ينمو أسفل عنقه. وشعرت

برغبة قوية في أن تلمسه. وودت لو استطاعت أن تدلك جانبي رأسه بأطراف أصابعها وترى عضلاته تسترخي تحت يديها.

وفتح عينيه فجأة فوجد عينيها عليه. قال آمراً:

«اجلسي ـ إني أستطيع أن أتحمّل، لن يغمى عليّ أو أي شيء سخيف من هذا القبيل».

وأخفت جفونها نظرتها المكشوفة وانتقلت بصعوبة إلى الكرسي الذي يواجه المدفأة وجلست على حافته وهي تدفىء يديها. وفكّرت أنه من الأفضل أن تستعمل التليفون بمجرد أن تستطيع ذلك. اذ بدأت تهتم بدومينيك لايول أكثر من اللازم.

وعندما تذكرت التليفون أخذت تفكر في الوقت المناسب لاستعماله. الوقت المضمون يبدو بعد ذهابه للنوم هذه الليلة إلا أن العائق الوحيد قد يكون انطلاق شيبا في المنزل في ذلك الوقت.

«ألن تصبي القهوة؟»

أيقظها صوته الهادىء من أفكارها فجفلت بعنف:

«ماذا؟ آه... نعم إذا أردتني أن أفعل».

واستدارت ناحية المنضدة المنخفضة ووضعت الأقداح في أطباقها بقرقعة عالية. أنعشتها رائحة القهوة ولكنّ يديها كانتا ترتعشان وهي تحمل الابريق.

«حليب وسكّر؟»

«لا ـ كما هي».

أجاب وهو يعتدل في جلسته ليتناول القدح الذي قدمته له.

«أشكرك».

وصبت القهوة لنفسها ووضعت السكر وأخذت تقلبه بشدة.

وسألها فجأة:

«لماذا غيّرت رأيك؟»

«غيرت رأيي؟ عن أي شيء؟»

وللحظة اختلط عليها الأمر.

«بالنسبة لشرب القهوة معي».

«آه... فهمت».

قالت وهي تتنفس برعشة. وهزت كتفها.

«كان يبدو من غير المجدي أن أدع أي فرصة لاقناعك بتغيير رأيك».

وضاقت عيناه:

«هل تعنين أنك تستطيعين ذلك؟»

وضعت قدحها الفارغ بحركات مضطربة:

«لا أعلم».

«ولكن ليس لديك مانع من المحاولة؟»

تنهّدت:

«قد أمل أن أحتكم لشعورك بالشرف».

«الشرف؟»

وهزّ رأسه:

«هذا مفهوم انقضى زمنه. وكيف تسوين أن تفعلي ذلك، بأن تجعليني أشعر بالامتنان نحوك؟»

«لا أفهم ماذا تقصد».

«أظن أنك تفهمين. إن اهتمامك من لحظات كان يبدو وحقيقياً».

كانت هيلين تتفادى عينيه ولكنها الآن نظرت إليه مباشرة:

«يا له من تفكير كريه!»

هزّ كتفيه:

«إنك تجيدين التمثيل. أنا أشهد لك بذلك. ولكن من الأفضل أن أخبرك أني لا أنخدع بسهولة. ولا أحب أن تضعي نفسك في موقف قد تجدين الخروج منه أصعب من الموقف الأول».

سألت بعدم ثبات:

«وما معنى ذلك؟»

كانت عيناه مغلقتين تقريباً:

«ببساطة لا حاجة بك إلى محاولة إغرائي واستعمال حيلك معي على أمل أن أضعف من ناحيتك».

وهبت واقفة:

«إنك... إنك تشبع غرورك!»

«لا، أنا لا أفعل».

وقال بجفاف:

«هذا أنا أحذّرك... إنه أقل خدمة أستطيع تقديمها بعد اهتمامك بي».

كانت سخريته واضحة فأطبقت قبضتيها. كانت ستفشي معرفتها بوجود التليفون في حجرة المكتب وأنها على الأقل ليست كاذبة مثله. ولكنها ظلت صامتة. وما ألمها بشكل خاص هو أنه شعر بانجذابها اليه وفسرّ ذلك تفسيراً خاطئاً. تصور أنها تفكّر في استغلال شبابها وجمالها لتغريه وتثنيه عن هدفه، لكن هذا كان أبعد شيء عن الحقيقة، ففي الواقع مجرد كون هذا الرجل المتجهم القاسي بجسمه المشوّه استطاع أن يحرّك أشواقها ورغباتها الدفينة جعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها. إنها لا تريد أن تنجذب الى دومينيك لايول. لا تريد أن تشعر بالارتباط بشخصيته المقلقة. وعلى الأخص لا تريد أن تفكر في التنفيذ الحسي لهذا الانجذاب الذي قد يثيره الشعور بيديه القويتين وجسمه النحيل.

قالت وهي ترتعش:

«أظن أنك كريه... إنك فاسد... سمحت للتشوية الذي في جسمك أن يشوّه روحك!»

فتح عينيه على آخرهما فكانتا قاسيتين كالحجر. ثم قال بخشونة:

«نعم ـ هذا صحيح ومن الأفضل لك أن تتذكّري ذلك دائماً!»

نظرت إليه هيلين نظرة أخيرة ثم اتجهت الى الباب. كانت تشعر برغبة في البكاء وبصداع في رأسها. للحظة بدا إنساناً، وقد استجابت بغباء لتلك الشخصية الرقيقة.

٤ ـ يوم أبيض

قضت هيلين بقية اليوم في غرفتها على غير رغبتها، قامت بإفراغ بقية حاجياتها من الحقائب ووضعتها في أدراج التسريحة وخزانة الملابس الضخم. وكانت تحاول أن تقول لنفسها إنه لا داعي لذلك لأنها ستترك هذا المنزل قريباً إلا أن هذا لم يكن يبدو حقيقياً.

في الساعة الواحدة حضر إليها بولت ليخبرها أن الغداء حاضر. وعندما نزلت بعد بضع دقائق فتح باب المطبخ وقال:

«أرجو ألا يضايقك هذا ولكني جهزت الغداء هنا لأن السيد لايول لن يأكل. ففكّرت أنك قد تفضلين الأكل معي».

تبعته هيلين إلى المطبخ وكتفاها محنيتان باكتئاب:

«طبعاً ـ وإن كنت لست جائعة كثيراً أنا أيضاً».

ولم يرد بولت بل أجلسها أمام المنضدة الخشبية وبدأ يضع أمامها أطباق الخضر. وأيا كان الطعام الذي أعدّه كانت رائحته جميلة مما فتح شهيتها.

وقالت بعد أن انتهيا من الطعام وأخذ يصبّ لها قدحا ثانياً من القهوة:

«كان الطعام لذيذاً يا بولت. ستجعلني أزداد وزناً إذا لم أكن حريصة».

ضحك بولت وقال وهو ينظر إلى جسمها النحيف:

«أشك في ذلك كثيراً كما أنه لن يضرك أن تسمني بعض الشيء».

ابتسمت هيلين وشعرت بالاسترخاء الكامل لأول مرّة منذ أن استيقظت هذا الصباح. بولت رقيق هادىء ليست له متطلبات مثل سيّده.

وعلى ذكر دومينيك لايول ذهب عنها سرورها. يجب ألا تنسى أبداً أنها هنا

بالرغم منها ومهما كان سجّانها ظريفاً فهو سجّان.

قالت وهي تعبث بملعقتها في طبق القدح:

«هل ذهب مخدومك للنوم؟»

هزّ بولت رأسه بالايجاب:

«نعم منذ أكثر من ساعة».

كان يجب أن تكتفي بهذا ولكنها لم تستطع. سألت بطريقة عرضية:

«ما العمل الذي يقوم به؟»

نظر بولت في قدحه وقال:

«إنه يؤلف كتاباً يا آنسة».

أثار هذا اهتمام هيلين على الفور فردّت:

«كتاب؟ أي نوع من الكتب؟»

قال بولت معتذراً:

«لا أظن أنني يجب أن أناقش أمور السيد لايول معك يا آنسة. لماذا لا تسألينه هو؟»

تنهدت هيلين:

«فعلاً ولماذا؟»

وضع بولت قدحه ثم قال:

«دعيني الآن أسألك سؤالاً. ما الذي حدث بينكما هذا الصباح؟»

ركّزت بصرها على بقايا القهوة في قدحه. ثم قالت بخشونة:

«لا شيء يذكر».

قطب بولت جبينه:

«ماذا قلت له؟»

«ماذا قلت له؟»

سألت هيلين بغيظ:

«لم أقل له شيئاً، فقد أحضرت له أقراصه اللعينة».

«أفهم من ذلك أنه لم يقدر هذه المجاملة؟»

«إن هذا تخفيف كبير لما حدث ـ إن مخدومك رجل فظ».

قام بولت وبدأ يجمع الأطباق المستعملة وهو يقول:

«يجب أن تفهمي...»

ولكنها قاطعته بحدة:

«لماذا يجب أن أفهم أنا أي شيء؟ لماذا لا يحاول هو أن يفهمني ـ كيف أشعر؟ أنا لم أطلب أن أحضر هنا. وبالتأكيد أنا لا أريد أن أبقى هنا».

نظر إليها بولت بعطف وقال:

«أنا لا أحب أن أراك تتألمين».

قالت هيلين بغضب:

«أنا أتألم؟ لماذا تفترض أني أتألم؟ أظن أنه وقح وقليل الأدب وأناني كيف يمكنه أن يؤذيني؟»

رفع بولت حاجبيه قائلاً بغموض:

«أخبريني أنت».

حمل الصحون إلى المجلى وبرغم اعتراضه أصرت هيلين على مساعدته في غسلها. وبعد أن انتهيا ووضعا كل شيء في مكانه وأصبح المطبخ نظيفاً لامعاً مرّة ثانية قال:

«السيد لايول سيبقى على الارجح في فراشه طوال بعد الظهر. هل تريدين أن تأتي معي لرؤية الحيوانات الأخرى؟»

نظرت هيلين الى النافذة. كانت الشمس الساطعة قد اختفت جزئياً وبدا كأنما الثلج سيعود للسقوط مرة أخرى. ولكن إغراء الخروج في الهواء الطلق كان لا يقاوم. فقالت ببساطة:

«أنا أحب ذلك جداً».

وبدا عليه السرور:

«هل لديك حذاء عال ضد الماء وملابس ثقيلة؟»

«نعم، كنت أتوقع أن أقوم برياضة المشي».

وابتسمت ابتسامة ساخرة مستهزئة بنفسها:

«وإذا جفّ معطفي...»

«بالطبع. إنه في غرفة الملابس. علقته هناك هذا الصباح».

سارت هيلين الى الباب بحماس قائلة:

«اعطني خمس دقائق فقط وسأكون مستعدة».

وهرعت صاعدة السلالم الى غرفتها وهي تتساءل إذا كانت تستطيع انتهاز هذه الفرصة لتستعمل التليفون. كان بولت مشغولا في المطبخ يستعد للخروج و دومينيك لايول في الفراش. لكن لا. إن فكرة إفساد العلاقة بينها وبين الخادم الضخم لم ترق لها، وهي لا تود أن يضبطها في ظروف سخيفة. فلتترك ذلك الى المساء. خاصة ان أحداً لن يخرج. نزلت مرة أخرى وقد أدخلت ساقي بنطلونها الجينز في حذائها المطاطي العالي وليست كنزة إضافية. ثم استعادت معطفها الأحمر من غرفة الملابس في الصالة وحمدت الله أنه لم يتأثر من الماء الذي بلله ثم جمعت شعرها داخل قلنسوته وذهبت لتبحث عن بولت.

وكان الجوّ بعد ظهر ذلك اليوم جميلا، ذكرها بطفولتها. فمنذ انتقالهم إلى لندن بات الشتاء فترات باردة مريعة حيث تمتلىء الأرصفة بوحل قذر وتصبح السيارات أماكن دافئة تنقلك من مبنى مدفأ إلى آخر... حان الوقت للتخطيط لقضاء عطلات الشتاء في أماكن مثل جامايكا و باربادوس حيث الشمس ساطعة دائماً لتبعد كآبة الشتاء. ولكن الأمر يختلف هنا. كان الثلج أبيض والهواء منعشاً ولم تكن تشعر بالبرد على الاطلاق فهي شابة وصحتها جيدة وقد فرغت للتوّ من وجبة لذيذة وكان كل جسمها يفيض بالصحة والسرور.

كان بولت يعني بالأبقار في الحظيرة فنظف مكانها وقدم لها التبن الطازج. وهيلين، التي كانت تخشى الأبقار، بذلت ما استطاعت من مساعدة، لكنها كانت تفضل حظيرة الدجاج حيث كانت تجمع البيض الطازج.

ورأت زحافة مسنودة إلى الجدار فأشارت إليها سائلة بولت، فأوضح لها أنه كان يستعملها أحياناً في نقل طعام الحيوانات. ثم قال:

«وجدتها في سقيفة قديمة عندما أتينا. ومن المحتمل أنها ملك لبعض الأطفال الذين كان آباؤهم يأتون للزراعة».

لمعت عينا هيلين وسألت:

«هل يمكننا أن نستعملها؟»

استغرب بولت:

«ماذا تعنين؟»

«ألا يوجد منحدر هنا يصلح لأن نستعملها عليه؟»

ضحك بولت قائلاً:

«هل تقصدين أن نذهب للتزلج؟»

«نعم ـ هل نستطيع؟ أرجوك».

كانت تستعطفه بكل سحرها.

نظر بولت متفحصاً المكان حوله ثم قال:

«حسناً، هناك منحدر الى جانب المنزل ولكنه ينتهي ال الجدول، والجدول مغطى بطبقة رقيقة من الثلج لا تتحمل ثقل أي شخص لذلك يجب تفاديه».

«سأكون حريصة. أنا أستطيع أن أوجه الزحافة. أرجوك أن توافق».

أخيراً استسلم بولت وسارا حول المبنى إلى جانبه وكان الثلج هنا نقياً لم يلمسه أحد. وكانت هيلين سعيدة سعادة صبيانية بأن تسير فيه وتترك آثار أقدامها. كانت الزحافة كبيرة وتكفي لاثنين. ولكن في البداية أصرّ بولت أن يقف في أسفل التل بجانب الجدول لئلا يقع لها مكروه. ولكن عندما رأى أنها تستطيع أن تتحكم في الزحافة وافق أن ينضم إليها وأخذا يتزحلقان معاً على المنحدر ضاحكين خاصة عندما انقلبت الزحافة عند القاع وألقت بهما في الثلج. وكانت أصعب مرحلة هي الصعود إلى أعلى التل مرّة ثانية.

وعندما شعرت هيلين بألم في ساقيها، قرر بولت أن يكتفيا بهذا القدر. وسارا عائدين الى المنزل في صداقة بريئة. ولاحظت هيلين أنها لم تفكر مرة واحدة في الحرب خلال هذه الساعات التي قضياها في اللهو.

أخذت حماماً قبل وجبة العشاء وبعد شيء من التردد لبست ثوباً طويلا من قماش الصوف الجرسيه المشجّر بألوان زرقاء وخضراء. كان لونه يظهر جمال عينيها الأزرق المشرّب بالخضرة وطوله يظهر استدارة جسمها. برغم أنها لم تكن

تريد ان تعترف بذلك لكن رغبتها في أن تبدو بأحسن صورة كان سببها السخرية المهينة التي وجهها اليها دومينيك لايول من قبل. كانت تتمنى أن يمتدح مظهرها فتجد الفرصة لاحراجه وردّ اعتبارها وكرامتها. ولكن أملها لم يتحقق، عندما دخلت غرفة الجلوس بعد قليل ووجدتها فارغة. وبينما وقفت وسط الغرفة لا تدري ما تفعل، دخل بولت وقال باعتذار:

«السيد لايول لن ينزل الى العشاء. وسأحضر لك عشاءك بعد دقائق».

تمنّت هيلين لو أنها لم تهتم كل هذا الاهتمام بمظهرها ـ ثم شبكت يديها وقالت بحركة معبرة:

«هلا انضممت إليّ يا بولت؟»

نظر بولت إلى سرواله الخشن وأكمام قميصه المطوية قائلاً:

«وأنا على هذه الصورة يا آنسة؟»

قالت هيلين بنفاذ صبر:

«بالطبع ـ لا يهمني كيف يكون مظهرك ـ أنا لا تعجبني فكرة تناول الطعام بمفردي».

استرخى بولت:

«حسناً يا آنسة ـ اجلسي وسأكون معك على الفور».

كان بولت قد أعدّ هذه الليلة شرائح من اللحم مطبوخة في صلصة البصل وجزراً وكان الحلو فطيرة شوكولاتة. كما شربا عدة كؤوس من زجاجة شراب أحمر. وبعدما انتهيا جلست هيلين مسترخية في كرسيها وابتسمت له بكسل:

«إنك حقاً أحسن طباخ! هل كنت طباخاً في الجيش».

وهز رأسه بالنفي:

«لا يا آنسة في الأسطول».

«فهمت، ولكن كيف تعلّمت الطهي؟»

هزّ بولت كتفيه:

«علّمت نفسي يا آنسة. كما قلت لك أنا صاحب سبع مهن ـ أعمل كل شيء».

نظرت هيلين في أعماق النار في المدفأة:

«وأنت الآن تعمل لدى السيد دومينيك لايول».

«نعم».

«هل كنت تعمل عنده قبل الحادث».

«نعم».

«إذن كنت الميكانيكي له».

«نعم».

فكرت هيلين في ذلك:

«كان حادثاً مروعاً ـ أليس كذلك؟»

قال بولت بأسى:

«مات رجلان على الفور».

«أظن أنك كنت تعرفهما».

«أحدهما كان شقيق السيد لايول».

اتسعت عيناها:

«لم أكن أعلم ذلك».

وهزّ بولت رأسه بالنفي:

«لم يكن ذلك معلوماً لكثيرين. كان يتسابق باسم مستعار لئلا يختلط الأمر مع دومينيك».

تحركت مشاعر العطف فيها:

«هذا فظيع».

«نعم».

قال بولت وهو يضع الزجاجة الفارغة على الصينية ويبدأ في جمع الصحون المستعملة:

«أظن أنك كنت ما تزالين تلميذة في ذلك الوقت».

اعتدلت هيلين في جلستها وقالت:

«كنت أبلغ السادسة عشرة على ما أظن. وكان والدي يهتم جداً بسباق السيارات ويحتفظ بكلّ الصور وكلّ مقالات الصحف. تأثر كثيراً بالحادث».

قال بولت بصوت يكاد يكون غير مسموع:

«من منا لم يتأثر!»

ثم استطرد:

«لنتكلم عن شيء آخر. أخبريني عن لندن. لم أزرها منذ سنوات».

قالت هيلين وهي تلمس ذراع الكرسي:

«لندن؟ إنها كما هي».

«لا تبدين متحمسة».

ابتسمت قليلاً:

«لا ـ لست متحمسة».

«لماذا؟ إنها بلدك. أليس كذلك؟»

وصححت على مهل ما قاله:

«أنا أعيش هناك».

«ولكن لديك اهل أليس كذلك؟ على الأقل والدك».

«لدي والد وزوجة أب ـ زوجة الأب التقليدية!»

«ألا تحبينها؟»

« إيزابيل؟»

هزت كتفيها:

«ليست سيئة على ما أظن. يمكن أن تقول إننا نتحمل بعضنا».

«هل لديها أولاد آخرون؟ هل والدك له أولاد آخرون؟»

«للأسف لا ـ أنا ابنته الوحيدة».

وجعدت أنفها وأضافت:

«وهذا يحزن إيزابيل كثيراً».

«لماذا؟»

«أوه... إنها قصة طويلة لا تهمك».

«بل تهمني».

وقطبت جبينها:

«عندما كان عمري اثني عشر عاماً تزوج والدي من إيزابيل. كان هذا أول زواج لها وثاني زواج له ـ كانت والدتي قد توفيت وأنا صغيرة جداً وبالطبع كانت إيزابيل تتوقع أن ترزق بأطفال ولكن هذا لم يحدث. وقد رفض والدي أن يتبنى أي أطفال».

ضحكت قليلاً ثم قالت:

«أظن أنه كان المفروض أن أشعر بالامتنان ولكن هذا ليس شعوري».

سأل بولت:

«ووالدك يدير تلك الشركة الكبيرة. شركة هندسية أليس كذلك؟»

«نعم. شركة ثورب الهندسية ـ إنه المدير المسؤول وقد تحسنت أحواله كثيراً. خاصة أنه كان يكاد يكون مفلساً عندما توفيت والدتي».

وكان بولت ينصت باهتمام:

«وكيف أصبح ناجحاً؟»

«تزوج إيزابيل ثورب».

هزّ بولت رأسه:

«آه فهمت ـ إنه داهية».

«نعم أليس كذلك؟»

تجهّمت هيلين:

«وأدخلوني مدرسة داخلية حتى كبرت وأصبحت أستطيع الاختلاط بالمجتمع».

كانت نظرة بولت رقيقة:

«أنا متأكد أن والدك فعل ذلك لأنه اعتقد أن ذلك أحسن الحلول».

«أحسن الحلول لمن؟»

«لكم جميعاً على ما أظن».

«أبي كان...أبي رجل طموح وأمي وحدها تستطيع أن تكبح جماحه. وعندما توفيت...»

ثم تنهدت هيلين:

«ما زال طموحاً. لكنه الآن يحتاج إليّ ليحقق أهدافه».

«ولهذا هربت».

«نعم».

«ماذا كان يخطط؟ زواج على ما أظن؟»

فابتسمت ابتسامة حزينة:

«وأنت أيضاً ذكي جداً. أليس كذلك؟»

وضحك بولت:

«أظن أن الأمر واضح. ومن هو هذا الرجل؟ هل هو من الأرستقراطيين أو من النفعيين».

«خليط من الاثنين على ما أظن. والده يملك حصة هامة في شركة يريد والدي الاندماج معها. وجده من ملاك الأراضي الأرستقراطيين».

«فهمت...إنه اختيار عظيم».

قالت هيلين بحركة لا إرادية:

«أوه... مايك على ما يرام وأنا أستريح إليه، قضينا أوقاتاً سعيدة معاً... ولكني لا أحبه».

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

«نعم يا بولت. تعرّفت الى شباب كثيرين. بعضهم صغير السنّ وبعضهم ناضج ولكني لم أقابل الشخص الذي يمكنني أن أتصوّر العيش معه بقية عمري. إلى جانب... أظن أني لا أهتم كثيراً بالرجال... أقصد من تلك الناحية...»

ولمعت عينا بولت:

«حقاً؟ هذا كلام غير معقول».

هزّت رأسها:

«لا ـ إنه ليس كذلك. أوه ـ لقد حلّ الشراب عقدة لساني... أنا لست معتادة على الافضاء بما بداخلي لأحد».

قال بولت مؤكداً بهدوء:

«إذن من الجائز أنه حان الوقت لأن تفعلي، هل تتكلمين مع زوجة أبيك؟»

• إيزابيل؟ بالطبع لا. ليس بالطريقة التي تقصدها في أي حال».

«لماذا؟»

«لأنها لن تهتم ـ لديها ما يكفيها من اهتماماتها الخاصة مما يصرفها عن أن تشغل بالها بشؤوني أنا».

«ووالدك؟»

«أظن أنه يمكن أن يتركني أتحدث معه ولكنه لا ينصت لما أقول. وخاصة إذا كان هناك شيء لا يريد أن يسمعه».

رفع بولت الصينية وقام وهو يقول:

«أظن أن هذا مؤسف».

تمطت هيلين باستمتاع وسألته بكسل:

«هل أخبرك أحد أنك منصت جيد؟»

«لا. ولكني مستعد دائماً للاستماع الى الاطراء!»

ثم بعد خطوات قال:

«والآن سأغسل هذه الصحون وأذهب للنوم ـ أنا متعب».

«نعم وكذلك أنا».

قالت ذلك وهي تتثاءب. ثم تذكرت ماذا عليها أن تفعل!!

قامت وهي تقول:

«على فكرة... أنا لم أر شيبا اليوم».

ونظر بولت حوله:

«لا؟ كانت في الفناء هذا الصباح. ثم ذهبت مع السيد لايول إلى غرفة نومه منذ دخل لينام».

«هل تنام في غرفته؟»

هزّ بولت رأسه بالنفي:

«بالطبع لا. سأحضرها إلى الدور الارضي قبل النوم. يجب أن تخرج للفسحة».

«إذن فهي تتطلق في المنزل ليلاً؟»

نظر إليها بولت نظرة تقليدية:

«هل تفكرين في الهرب ـ أم ماذا؟»

احمرّت هيلين:

«لا كنت أريد فقط أن أعرف».

«حسناً ـ في الواقع أنها تنام في المطبخ».

«فهمت ـ إنه أمر غريب أن يحتفظ بهذا الحيوان كأنه أليف أليس كذلك؟»

«ربما ـ أعطاها أحد الأصدقاء للسيد لايول. ولكن هذا الشخص سيستردها قريباً لهدف الانجاب».

استوعبت هيلين هذا الخبر:

«آه حسناً ـ تصبح على خير».

«تصبحين على خير يا آنسة».

وخرج وتركها ـ تساءلت ما ستفعل الآن؟ هل ستبقى هنا حتى يذهب بولت إلى حجرة سيده في الطابق العلوي ويحضر الفهدة ويأخذها الى الخارج ثم يذهب لينام ـ لا إن هذا قد يثير الشك. أحسن خطة هي أن تذهب الى غرفتها وتنتظر حتى يهدأ المنزل.

بعد أن اتخذت قرارها صعدت ببطء الى غرفتها. كانت خائفة لعلمها أن شيبا موجودة في مكان قريب لكنها وصلت بسلام. وخلعت ثوبها الطويل وارتدت البنطلون الجينز والفانلة الصوفية وجلست تنتظر.

لم تكن الغرفة دافئة رغم المدفأة الكهربائية كغرفة الجلوس في الطابق الارضي. وبعد قليل بدأت ترتجف. وشعرت أنه مرّ وقت طويل جداً قبل أن تسمع صوت بولت وهو يصعد السلالم. ثم سمعت أصواتاً في الطرف الآخر من الدهليز فتأكدت أن دومينيك لايول ما زال يقظاً ايضاً.

فقامت وأخذت تذرع الغرفة لكنها استمرت تشعر بالبرد. خلعت حذاءها ودلفت الى السرير وسحبت الغطاء عليها. وشعرت بالدفء والحرارة تشع من زجاجات المياه الساخنة التي وضعها بولت بين الملاءات

كان الثلج في الخارج يعطي إضاءة غريبة للغرفة. وسمعت الريح تصفر تحت النوافذ. وكان السرير دافئاً. وتثاءبت والنعاس يداعبها. وأغمضت عينيها... كان بولت لطيفاً جداً، ولكنها هي التي تكلمت طوال الوقت هذا المساء. إنه يعرف

كل شيء عنها الآن. حتى عن مايك... تثاءبت مرة أخرى. أوه، لا أهمية لذلك إنه ليس سراً.

ثقلت عيناها أكثر فأكثر. تنهدت ثم استغرقت في النوم. وعندما فتحت عينيها مرة أخرى كان ضوء النهار يملأ الغرفة ولشدة أسفها أدركت أنه الصباح.

٥ ـ الكتاب

لحسن حظ هيلين أنها استطاعت غسل وتغيير ملابسها قبل أن يحضر بولت بإفطارها. لم تكن تريده يرى أنها نامت بكل ملابسها لئلا يأخذ انطباعاً خاطئاً عنها. أما الآن، وهي أمام المرآة تمشط شعرها وتبدو ممشوقة وجذابة، ارتدت بنطلونا من التويد وبلوزة بنفسجية ذات أكمام طويلة. طرق بولت الباب وحيّاها باسماً:

«صباح الخير. هل نمت جيداً؟»

استطاعت أن تخفي شعورها بالذنب.

«نعم، أشكرك وأنت؟»

«نمت ملء اجفاني!»

قال وهو يضع الصينية التي يحملها على المنضدة بجانب سريرها:

«أعددت لك فطوراً... وبيضاً مخفوقاً».

«هذا عظيم».

ثم قالت وهي تنظر نحو النافذة:

«هل سقط الثلج مرة أخرى؟»

«نعم ـ اليوم ليس صحوا كالبارحة. كما أن الجو أشدّ برداً».

وتنهّدت هيلين:

«أوه... ليس مهماً».

جلست بجانب الصينية ثم سألت:

«كيف حال مخدومك اليوم؟»

قال بولت بسرور ظاهر:

«أحسن قليلا. سأراك بعد قليل».

ابتسمت له هيلين وترك الغرفة.

استمتعت بإفطارها ولكن ليس كالأمس. أمس كانت جائعة جداً. لكنها اليوم متضايقة لأنها نامت هذا النوم العميق. كانت الوجبة شهية رغم ذلك وعندما انتهت حملت الصينية الفارغة إلى المطبخ. وكانت شيبا مستلقية على السجادة في الصالة خارج غرفة مكتب دومينيك لايول وعندما نزلت هيلين السلالم رفعت رأسها ـ اقشعرّت لتلك النظرة المخيفة ولكن الفهدة لم تتحرّك، وسارت هيلين بسرعة الى المطبخ.

لم يكن بولت موجوداً، وبدون تفكير وضعت الأطباق في الحوض وفتحت الصنبور. ولم تكن غسلت أطباقاً منذ تركت المدرسة الداخلية.

«صباح الخير يا آنسة جيمس ـ هل أعطّل عملك؟»

«صباح اليخر يا سيد لايول. إنك لا تعطل أي شيء. أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟»

كان يرتدي بنطلون، جينز أزرق وقميصاً جينز مفتوحا عند الرقبة مما جعله يبدو رشيقاً جذاباً. وكان البنطلون الضيق يزيده طولا، وعرجه لا يبدو ظاهراً طالما هو لا يتحرك. ولكن حتى عندما سار نحوها لم تجد في عرجه ما يشير اشمئزازها بل بالعكس فالطريقة التي كان يتحرك بها كانت جزءا من شخصيته.

وقال بهدوء:

«جئت لأعتذر عن تصرفي البارحة، أنا آسف».

كادت هيلين تشهق ـ توقعت أشياء كثيرة غضباً ووقاحة ونفاد صبر، ولكنها لم تتوقع هذا. تمنت لو أنه لم يفعل. كان أسهل عليها كثيراً أن تكرهه عندما يعاملها بعدم احترام.

وقالت بخشونة:

«أنا... لا داعي لذلك».

«أنا لا أوافقك».

قال وهو يقترب منها، وبينهما مسافة صغيرة، ونظرة عينيه الصفراوين نافذة أكثر من اللازم:

«عذري الوحيد أني كنت متألماً ومع ذلك لم يكن لي الحق فيما قلته فرغم رأيك فيّ لم أكن دائماً على هذه الدرجة من سوء الأخلاق».

سحبت هيلين يديها من الماء المختلط بالصابون وجففتهما. وكانت تشعر بشدة بقربه منها وكانت تشك أنه يعرف ذلك.

«حسناً، انتهى الأمر الآن كيف حال الصداع النصفي؟»

«أحسن كثيراً».

كان يسند نفسه بيد واحدة على المصفاة الصلب وتركزت نظرتها على أزرار قميصه الأسفل فوق حزام بنطلونه الجينز.

استطاعت أن ترد باقتضاب:

«حسناً».

«لا داعي لأن تقومي بغسل أطباقك».

«أنا أريد ذلك».

أجبرت نفسها على النظر إليه:

«هل تعلم أين ذهب بولت؟»

قال بدون تحديد:

«نعم أعلم. لماذا؟»

نظرت حولها:

«ظننت أني قد أخرج قليلاً. يبدو أن الثلج سيسقط ثانية و...»

قاطعها دومينيك وهو يفحص وجهها المحرج:

«هل تستطيعين عمل القهوة؟»

قالت باستغراب:

«نعم، أظن ذلك».

قال وهو يعتدل ويدلك فخذه ثانية:

«حسناً، أعدي لنا بعض القهوة إذا سمحت».

ردت هيلين:

«لنا؟»

قال وهو يعرج صوب الباب:

«بالطبع. وأحضريها إلى المكتب عندما تنتهين. سنشربها هناك».

وأغلق الباب. فوقفت هيلين تحدق في المكان حيث كان يقف منذ لحظة. لم تكن تعرف إذا كان هذا إهانة أو تكريماً لها. لم تكن معتادة على تلقي الأوامر. لكنها شعرت أنه يرفع غصن الزيتون.

ولكن المكتب! طلب منها أن تذهب إليه هناك! وماذا عن التليفون؟

هزّت كتفيها ونظرت محتارة حول المطبخ. كانت تعرف مكان البن اذ راقبت بولت وهو يعدّ القهوة لها في اليوم السابق. أما جهاز تحضير القهوة فهو معروف لديها.

وجدت أنها تستمتع بإعداد الصينية بقدحين من الفخار وطبقها اللذين استعملها بولت. وأكثر من ذلك وجدت السخان الصغير الذي يوضع تحت إبريق القهوة ليبقيها ساخنة. كانت تتوقع كل لحظة أن يعود بولت ويحاسبها على ما تفعله. لكنه لم يعد.

وعندما انتهت من إعداد القهوة حملت الصينية وذهبت بها إلى المكتب. لم تكن شيبا موجودة ولكن سرعان ما علمت بمكانها عندما طرقت باب غرفة المكتب ففتح لها دومينيك الباب وكانت الفهدة في أعقابه. ولكنه أمرها بالخروج فخرجت إلى الصالة وجلست في وضعها الأول. تنحى دومينيك عن الباب ليسمح لها بالدخول. وجدت أنه أفسح مكاناً على مكتبه لتضع الصينية. وانتقلت نظرتها رغماً عنها إلى إفريز الشباك في الركن. لكن التليفون لم يكن هناك. توقف قلبها عن الخفقان لحظة. هل تخيلته؟ أم أدرك لايول أنها اكتشفته فقام برفعه؟ لاحظت أن الستائر الحمراء تخفي إفريز الشباك جزئياً. من الجائز أنها تخفيه؟ هل يفعلون ذلك عن عمد؟ إنها لا تستطيع أن تتأكد من ذلك.

أشار دومينيك إلى كرسي على الناحية الأخرى من المكتب لتجلس عليه. وبعد أن جلست عاد الى مقعده. ولاحظت أنه يتوقع أن تسكب القهوة فسكبت له قدحاً وتركته بدون سكر.

قال وهو يتناول القدح ويضعه أمامه:

«أشكرك. كنت بحاجة الى القهوة».

لم تعرف هيلين بماذا ترد عليه. ولكنها حاولت أن تتحدث معه ببساطة:

«بولت أخبرني أنك تؤلف كتاباً».

«حقاً؟»

جعلتها نظرة عينيه الصفراوين تتساءل إذا كانت أخطأت القول مرة أخرى.

«نعم، ولكنه لم يقل لي شيئاً آخر، أعني أنه رفض مناقشة الموضوع معي».

«هل طلبت منه ذلك؟»

قالت هيلين وقد احمرّت خجلاً:

«نعم... أثار ذلك اهتمامي».

أمال دومينيك رأسه وسألها:

«لماذا؟»

«أظن أن تأليف كتاب لا بد أن يكون تحدياً ضخماً».

فكّر في كلامها ثم قال:

«إنه يتوقف على نوع الكتاب الذي يكتبه المرء. أظن أن بعض الكتب أصعب من سواها».

قطّبت هيلين جبينها:

«أظن أن كتابة الرواية أسهل من الكتب غير الخيالية».

فهزّ رأسه بالنفي:

«ليس بالضرورة. إذا كان الشخص يكتب عن قصة حقيقية فالأمر ينحصر في تقديم الحقائق بطريقة مقنعة. أما القصص الخيالية فتحتاج لمعالجة مختلفة بلا حسابات مسبقة».

«لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة».

فقالت وهي ترتشف قهوتها ببطء لتتذوقها وقد وجدتها لذيذة كالقهوة التي يعدها بولت:

«وهل تكتب رواية؟»

هز رأسه بالنفي:

«أنا؟ لا، كتابي واقعي تماماً».

قالت بحذر:

«هل هو عن سباق السيارات؟»

«هذه المرّة نعم».

ورفعت حاجبيها:

«هل كتبت كتاباً أخرى؟»

«كتاباً واحداً».

«وماذا كان موضوعه؟»

ابتسم بشيء من التسلية الساخرة:

«أنا متأكد أنك لست مهتمة حقيقة».

احمرّ وجهها:

«أوه... ولكني مهتمة فعلاً».

تردد ثم قال وهو يدفع قدحه على المكتب:

«كتبت تاريخ حياة والدي».

أثارها ذلك:

«والدك؟ كان ضابطاً في الأسطول، أليس كذلك؟»

بدأ صبره ينفذ:

«أخبرك بولت بهذا أيضاً ـ على ما أظن».

«نعم. ولكن فقط بطريق غير مباشرة. كان يقول لي إنه كان في الجيش. ثم أفلت منه ذلك بدون قصد».

نظرت إليه باستعطاف:

«لن تغضب منه، أليس كذلك؟»

تنهّد دومينيك:

«لماذا؟ ماذا أخبرك أيضاً؟»

هزّت كتفيها النحيلتين:

«لا شيء تقريباً. أخبرني عن والدك ـ هل ما زال حياً؟»

تكلّم دومينيك بلا عاطفة:

«لا، مات منذ ست سنوات».

«في الوقت نفسه تقريباً عندما وقع الحادث؟»

قالت ذلك بلا تفكير ثم بعد أن رأت وجهه تمنت لو أنها لم تفعل. وافق بلا شعور:

«نعم في الوقت نفسه تقريباً. هل أستطيع أن آخذ مزيداً من القهوة؟»

«بالطبع».

كانت هيلين سعيدة أنها تستطيع أن تفعل شيئاً. تكلمت بلا تفكير وبذلك قطعت الخيط الرفيع الذي بدأ يصل بينهما.

«تفضّل».

توقفت وهي تبدو مضطربة:

«ألن تكمل؟ أقصد عن والدك».

لم يتكلم دومينيك بضع دقائق فظنت أنه لن يجيبها ولكنه قال ببطء:

«كان يقود قوة هجومية في الشرق الأقصى خلال الحرب. ومنح وسام فيكتوريا لأنه تقدم هجوماً على مركز قيادة ياباني في الوقت الذي كان عدد رجاله أقل كثيراً من رجال العدو».

«هذا رائع! لا بدّ أنك شعرت بالفخر الشديد به».

قال موافقاً:

«شعرت أمي بذلك... لم أكن يافعاً إلى هذا الحدّ أما فرانسيس فكان مازال طفلاً».

«لم أقصد ذلك... أي...»

شعرت هيلين بوجهها يحمرّ مرة أخرى ولحسن الحظ أن خجلها منعها من توجيه الأسئلة الأخرى التي كادت أن تنطق بها. هل كان فرانسيس شقيقه الوحيد؟ الشقيق الذي قتل في ذلك الحادث المشؤوم؟ لو كانت قد أفشت علمها بشخصية شقيقه لافترض دومينيك أن بولت ناقش الحادث معها بينما هو في الواقع أصرّ على عدم الكلام في هذا الموضوع.

وانتهى دومينيك من قدحه الثاني ووضعه جانباً، وسحب كمية من الأوراق أمامه. كان هذا يعني أنه على هيلين أن تنصرف. شعرت بخيبة أمل بلا سبب معقول لكنها كانت مضطرة أن تقوم وتجمع ما أحضرته في الصينية قبل أن تذهب. ورفع دومينيك بصره وهي تضع الأطباق محدثة صوتاً عالياً وفهمت أنه شعر بمضايقتها التي لم تستطع إخفاءها. فقال بهدوء:

«سيحضر بولت سريعاً. لا حاجة بك للاهتمام بهذه الأشياء».

«أستطيع أن أتصرّف».

التقطت هيلين الصينية وسارت نحو الباب لكنه تحرك بخفة وسرعة عجيبتين ووصل إلى الباب قبلها وتسارعت أنفاسه نتيجة الجهد المفاجىء. ونظرت هيلين إلى النبض الذي يتحرّك عند قاعدة عنقه ثم لمحة من جلده الذي ظهر من بين أزرار قميصه المشدود. وانتقلت نظرتها آلياً إلى يده التي تدلك فخذه وشعرت بنبض عنيف في أذنيها. للحظة سرى بينهما شعور ملموس بالانجذاب وكانت متأكدة أنها لو اقتربت قليلا منه لشعرت على الفور بتجاوبه الأكيد. كانت تجربة مسكرة وقد عبرت عيناها اللتان رفعتهما إلى عينيه ببلاغة عن مشاعرها. لكن تعبيره جمّدها. كان يمتلىء بالمرارة وبالرفض الشرس للمشاعر التي كانت متأكدة أنها أثارتها فيه. فتح الباب بعنف وبلا مقدمات، ورغم أنها كانت متأكدة أنه كان سيقول شيئاً لكنه بقي صامتاً.

وفي المطبخ انتابتها رعشة كردّ فعل لما حدث. للحظات كان تصرفها غريباً وغير مفهوم مما أخافها. ما الذي يحدث لها؟ عرفت دومينيك لايول لثلاثة أيام فقط ومع ذلك استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يسيطر على عقلها ويفقدها الادراك السليم لدرجة أنها أصبحت تتخيّل علاقات بينهما لم يكن لها وجود إلا في خيالها. ضغطت راحتيها على خديها الملتهبتين. يجب أن تهرب. يجب أن تهرب من هنا قبل أن يحدث شيء لا يمكن علاجه. أغمضت عينيها وهي تشكر القدر الذي منع دومينيك لايول من أن يتصرف بناء على استفزازها الغبي. كادت تقفز من جلدها عندما سمعت بولت يقول باهتمام:

«ماذا بك؟ هيلين... هل تبكين؟»

فتحت عينيها:

«لا . لا أنا لا أبكي».

هزّت رأسها لتدفع عنها ذلك الشعور المنذر بالشر الذي كانت تحس به. طرفت عيناها:

«من أين جئت؟»

ابتسم بولت:

«حضرت من خمس دقائق. كنت أعلّق معطفي».

«أين كنت».

تنهّد بولت:

«ذهبت الى البريد».

حملقت هيلين فيه:

«أين؟»

«في المركز...»

«آه... بالطبع. ولم يكن في استطاعتك أن تصحبني معك».

نظر إليها بولت بصبر نافد:

«لا».

رأى الصينية على المنضدة أمامها:

«ما هذا؟ هل كنت تصنعين القهوة يا آنسة؟»

هزّت هيلين رأسها بالايجاب:

«دعوتني هيلين منذ لحظات. يمكنك أن تدعوني كذلك إذا أردت. إني أفضله على كلمة آنسة».

هزّ بولت رأسه:

«كنت خائفاً عليك. وقد كانت زلة لسان».

قالت هيلين بضيق:

«وأنا أيضاً زلّ لساني. أخطأت وذكرت أني علمت أن والده كان في الجيش».

«وماذا حدث؟»

«أظن أنه يعتقد أننا كنا نتناقش في أموره».

وتنهّدت:

«ماذا ستفعل الآن؟»

«إذا كان السيد لايول قد شرب قهوته أظن أني أستطيع البدء في إعداد الغداء».

وضعت هيلين يديها في جيبي بنطلونها:

«وماذا عني أنا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟»

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

قالت بسخرية:

«لا بد أنك تمزح!»

«بغض النظر عن ذلك».

«أوه لا أدري. ألا ترون أحداً هنا؟ أقصد ألا يأت إليكم أي زائر؟»

«أحياناً».

«من؟»

«أصدقاء السيد لايول».

«رجال أم نساء؟»

«النوعان».

استوعبت هيلين هذا بشكل ما. كانت تظن أن أحداً يزوره. إن الاعتقاد السائد أنه مات أو أنه يعيش خارج البلاد جعلها تفترض أن أحداً لا يعلم بمكانه. ولكن بالطبع لا بد أن له أصدقاء ـ ومن الممكن أقرباء ـ يعلمون أنه يعيش هنا. وكانت تود لو استطاعت أن تسأل عن زائرين من النساء، ولكنها شعرت بشكل ما أن بولت لن يتكلم عن هذا الموضوع كما لن يتكلم عن غيره. ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتصوره مع امرأة أخرى. وقد ضايقتها هذه الصورة.

قالت فجأة:

«سأذهب الى غرفتي».

نظر بولت إليها باستغراب. ثم قال محتجاً وهو يجفف يديه:

«لست مضطرة لذلك».

ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

في غرفتها ألقت بنفسها على السرير غير المرتب، ونظرت بضيق إلى السقف. كانت تشعر باكتئاب شديد. كل شيء يضايقها. هذا المنزل وظروفها وخاصة دومينيك لايول. إنها لا تفهم ما الذي يجذبها إليه. إنه ليس وسيماً ولا جميل الشكل رغم أن بعض النساء قد يجدن في ملامحه الخشنة وعينيه الغائرتين ذات الجفون الثقيلة بعض الجاذبية. ولكن موقفه منها كان دائم السخرية. كما أنه كان يستطيع أن يكون شديد الوقاحة إذا شاء. فلماذا يشغل فكرها إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تفكر في والدها وما قد يكون لهذه العلاقة من تأثير عليه؟ بدلاً من أن تنغمس في هذه العاطفة غير المقبولة. إنه تصرف غير طبيعي وغير معتاد وهي تستحق هذا الشعور بالاكتئاب.

حاولت عن عمد أن تسترجع صورة مايك فراملي إلى ذهنها. إنه الرجل الذي يريدها والدها أن تتزوجه. إنه شاب غني وجميل. كل صديقاتها يحسدنها عليه ومع ذلك فهو لا يحركها.

أخذت تشد خصلة من شعرها الأسود الناعم وهي تسترجع النفور الذي شعرت به عندما قبلها للمرة الأولى. وقد قبلها بعد ذلك عدة مرات وهي تظنّ أنها اعتادت على قبلته ولكنها لم تستمتع بها أبداً. فكرت بأسى: «لابد أن هناك شيئاً غير طبيعي فيها. لماذا لا تنجذب لمايك؟ لماذا تشعر بالتوتر كلما حاول أن يلمسها؟ ولماذا كانت فكرة الزواج به تملؤها بالنفور؟».

ظنت أن العيب فيها هي. وأن هناك شيئاً ينقصها ولكنها الآن ليست متأكدة من ذلك. تذكرت الطريقة التي استجابت بها لقرب دومينيك لايول منها فشعرت بسخونة ترطب جسمها ولاحظت أنها لم تشعر بالانكماش بداخلها من لمسة يده.

شعرت بالحيرة الشديدة من ردود فعلها المختلفة. هل فقدت التحكم في مشاعرها؟ هل هو ما يعنيه الناس عندما يتكلمون عن الانجذاب الجسماني؟ هل

هي مشكلتها؟ هل أصبحت مفتونة بهذا الرجل القاسي المدمّر؟ هذا لا يبدو ممكناً. ولكن هل هناك تفسير آخر؟

اعتدلت جالسة... أصبحت خيالية أكثر من اللازم. لا بد أن السبب بقاؤها وحيدة أغلب الوقت تفكر وتتخيّل الأشياء. قامت من السرير وذهبت إلى الحمام. إنها لا تشعر بالراحة. قررت أن تأخذ حماماً يشغلها قليلاً ويساعد على قضية الوقت حتى المساء عندما ستستعمل التليفون كما صمّمت.

خرجت بعد الظهر للتنزه مع بولت.

لقد تناول دومينيك لايول غداءه في مكتبه. وتناولت هي غداءها مع الخادم في المطبخ. وبعد أن انتهى من غسل الصحون اقترح بولت أن يخرجا قليلا. شعرت هيلين أنه يحاول أن تعويضها عن عدم أخذها معه في الصباح إلى مكتب البريد. لم تستطع إلا أن تتساءل عن بعد مكتب البريد عن المنزل. إذا كان بولت قد استطاع أن يذهب ويعود في حوالي ساعة إذن فهو ليس على مسافة كبيرة.

عندما خرجت رأت آثار عجلات سيارة وقد سوّت الثلج المؤدي الى الدرب الذي سلكته مع دومينيك عندما أحضرها في المرة الأولى وشعرت أنه لا بد أن يكون لديهم عربة من نوع ما.

«هل لديكم سيارة؟»

سألت وهي تقف داخل حظيرة الأبقار تراقب بولت وهو ينظف الروث من الحظائر. إذا كان لديهم سيارة ـ وهذا محتمل ـ فقد تستطيع أن تهرب بها. شيبا لا تستطيع أن تؤذيها وهي داخل السيارة.

استند بولت على الجاروف ونظر إليها قائلا بلطف:

«لدينا عربة جيب».

«أه... صحيح».

حاولت هيلين إخفاء سرورها الشديد:

«ولكني لم أرها هنا».

علّق بولت وهو يعود لعمله:

«من الجائز لأنها كانت في الكاراج. هل سبق لك أن قدت سيارة من هذا النوع؟»

اغتصبت هيلين ضحكة مرحة:

«بالطبع لا... لا أعرف كيف أبدأ».

وبدا على بولت أنه صدقها.

قال وهو يعتدل ليريح ظهره:

«إنها ليست دائماً سهلة إذا لم تكوني معتادة عليها».

غيّرت هيلين الموضوع. شعرت أن بولت يحاول أن يقول لها شيئاً ما ولكنها لم ترد أن تستمع.

وبعد ذلك أخذها للسير صاعدين التلّ خلف المنزل وكان الجوّ كما قال من قبل أبرد كثيراً لكن الحركة جعلت الدم يجري في عروقها. وعادت الى المنزل وهي تشعر أنها أكثر مرحاً ولو انها غير متأكدة إذا كان هذا الخروج أم نتيجة معرفتها بأن تلك العربة تنتظرها في ذلك الكاراج.

وارتدت ثوباً طويلاً آخر ذلك المساء للعشاء. كان أحد ثيابها المفضلة بلون الياقوت الأزرق برقبة منخفضة تظهر نقاء جلدها الأبيض وبأكمام طويلة تنتهي بطرف مدبب عند الرسغين. ورفعت شعرها على الجانبين وشبكته بمشبك من الماس عند قمة رأسها وتركت خصلتين صغيرتين قرب أذنيها. وكانت عادة لا تضع إلا قليلا من الماكياج وهذه الليلة أظهرت لون عينيها بقليل من الظلّ الأخضر وطلت شفتيها بأحمر شفاه برتقالي.

كان دومينيك لايول في غرفة الجلوس عندما دخلت وكان يسكب لنفسه كأساً من الشراب بجانبه. نظر إليها بتأمل دون أن يبدي أي إعجاب كانت تنتظره. كما أنه لم يقم لاستقبالها. ترددت قليلا قرب الباب وهي تنظر الى الفهدة أمام المدفأة عند قدميه.

ضغط على الفهدة بقدمه حتى لا تتحرك ثم قال:

«اجلسي. أرجو أن تعذريني إذا لم أقف لأني هذا المساء أجد من الأسهل أن أبقى جالساً».

شبكت هيلين يديها وتقدمت. تمنت لو أنها لم تهتم الى هذه الدرجة بمظهرها.

شعرت أنها متأنقة أكثر من اللازم بينما يرتدي ملابسه السوداء التي ارتداها اليوم السابق ويبدو كشيطان فضّي الشعر.

عندما جلست سكب لها قليلا من الشراب وأضاف بعض الصودا وقدمه لها. أخذته هيلين لأنه كان يتوقع ذلك ولكنها لم تكن تحب هذا الشراب كثيراً.

قال وهو يتفحّصها بوقاحة بعينيه الصفراوين:

«هل هذا من أجل بولت أم من أجلي؟»

رفضت هيلين أن تتأثر بطريقته وردت ببرود:

«أنا معتادة على ارتداء ملابس خاصة للعشاء. والدي يقول إن هذا يرفع الروح المعنوية».

هز دومينيك رأسه موافقاً:

«هل يقول ذلك؟ وكيف حال روحك المعنوية هذا المساء؟»

فاجأها بسؤاله:

«لماذا تسأل؟»

«لماذا ترد النساء جميعهن على السؤال بسؤال آخر؟ أنا أريد أن أعرف كيف تستمتعين ببقائك معنا».

ردّت هيلين بغضب:

«يجب أن تعرف أني لا أستمتع به على الاطلاق».

«بالعكس ـ بولت أخبرني أنك كنت تتمشين وتتزحلقين وتستمتعين بالهواء الطلق. أليس هذا هو ما أتيت للشمال من أجله؟»

قالت بصبر نافد:

«أتيت إلى الشمال لأكون مستقلة وليس لأستبدل عبودية بعبودية أخرى».

«أهو بهذا السوء؟»

وفجأة اختفت السخرية من صوته ـ وشعرت بأطرافها السفلى تتخاذل. نظرت إليه وهي ترتعش محاولة أن تقرأ التعبير في عينيه اللتين ضاقتا بين رموشه الكثيفة.

كان فمه ينطق بالرغبة وهو يرد نظرتها، فشعرت بأن كل عدائها له يذوب في

لهيب أشواقها التي لم تشعر بمثلها من قبل. وكان الدم يتدفق بجنون في عروقها وأصبح تنفسها سريعاً وسطحياً. كانت تريد أن تذهب إليه وتضع ذراعيها حوله وتقول له إذا كان يريدها فهي لن تذهب أبداً. ولكن هذا جنون مطبق.

انفرجت شفتاها ولكن قبل أن تنطق قام فجأة ثم أجفل من الألم لاصطدام ساقه.

انتقل عبر الغرفة ولكن ألمه انتقل إليها كأنها تشعر به. على الفور قامت وذهبت وراءه. كان يقف مستنداً بقبضته على طرف المكتب وظهره إليها. وكان وضعه ينمّ عن شدة تألمه لدرجة أنها وقفت وراءه لا تدري ماذا تفعل وقالت:

«هل... هل أنت بخير؟»

قال من بين أسنانه بدون أن يستدير:

«نعم ـ أنا على خير ما يرام».

فركت يديها:

«هل أنت متأكد؟ هل أستطيع أن أحضر لك أي شيء؟ هل تتألم؟ هل أنادي بولت؟»

استدار ناحيتها واستند على المكتب ووجهه يعكس الازدراء لنفسه الذي أصبحت تتوقعه. ثم قال بخشونة وقد شحب وجهه أكثر من المعتاد:

«أنا أقدّر هذا الاهتمام بي وخاصة بعد ما قلته. ولكن لا يا آنسة جيمس ـ لا يوجد شيء تستطيعين عمله ـ أشكرك».

كانت ستحتج على ما قاله ولكنها شعرت بأنه مصرّ على موقفه الجامد ولا فائدة من الكلام. وكان وصول بولت في هذه اللحظة حاملا العشاء منهياً الحديث بينهما.

لاحظ الخادم قربهما لبعض بجانب المكتب بفضول واضح ولكنه هزّ كتفيه فقط ووضع الصينية على المنضدة المنخفضة بجانب المدفأة.

عاد دومينيك وهو يعرج لمجلسه وفعلت هيلين الشيء نفسه لكنها نظرت باستغراب عندما قال:

«تعال انضم إلينا في العشاء يا بولت. أنا متأكد أن الآنسة جيمس تجد

صحبتك أكثر متعة من صحبتي».

تردد بولت ولكن يبدو أن تفاهماً ما تمّ بينه وبين مخدومه فابتسم وقبل الدعوة وهو يقول:

«أشكرك يا سيدي. أنا أحب ذلك».

«حسناً. فليكن عشاء ممتعاً لثلاثة».

تمدّد دومينيك بتراخ على كرسيه واسند ساقه المصابة على السياج الحديدي الذي يحيط بالمدفأة. تساءلت هيلين وهي تنظر إليه عن السبب الذي يجعل كلّ حركاته تحمل إغراء وسحراً لها. ولكن عندما رأى نظرتها إليه لم تستطع أن تفهم تعبيره.

وبالطبع لم يكن العشاء ممتعاً على الاطلاق. شعرت هيلين بشدة أن دعوة دومينيك لبولت كان سببها المشهد الذي حدث بينهما قبل وصول الخادم. ووجدت نفسها في وضع فخر وهي تشعر أنه يبينّ لها عن عمد أن تصرفها فيه إحراج له. له هو!

شعرت هيلين بالاهانة والضيق. ما الذي كان ينتابها عندما ينظر إليها بطريقة معينة فتنسى كل عداءها له وتصبح رهن إشارته؟ هل كان يفعل ذلك عن عمد، أم أنه انجذاب لا إرادي؟ أم أن طبيعته المنحرفة كانت تجد لذة في سذاجتها؟ لم تأكل إلا قليلا من الدجاج المحمّر الذي أعده بولت ولكن لحسن الحظ أن الرجلين كانت لديهما مواضيع كثيرة للحديث مما جعلهما لا يعلقان على عدم شهيتها للطعام.

عندما انتهت الوجبة، وكان الرجلان يدخنان، نظر دومينيك إلى هيلين وقال بتعمد ـ كما اعتقدت:

«أظن أني سأعمل بعض الوقت هذا المساء يا بولت ـ لست متعباً فقد استرحت بعد الظهر عندما كنتما في الخارج وسأسهر بعض الوقت».

قال بولت بحسم:

«هذا حسن طالما لا تجهد نفسك».

وقال دومينيك وهو يتمطى بكسل وينظر إلى وجه هيلين الذي بدت

عليه خيبة الأمل فجأة:

«إذا كنا سنترك هذا البلد قريباً يجب أن أحاول الانتهاء من كتابي».

نظرت هيلين الى يديها المعقودتين. وهي شبه متأكدة الآن أنه يعلم أنها رأت التليفون في المكتب. وكانت هذه طريقته في تحذيرها ألا تأتي وتستعمله هذه الليلة. شعرت بالاختناق في حلقها وغرزت أظافرها في راحتيها. كيف تستطيع في أي وقت أن تشعر بأي شيء غير الكراهية لهذا الشخص الذي يستغلّها دائماً لارضاء مزاجه السادي؟

٦ ـ القصة كاملة

في الأيام القليلة التي تلت ذلك، لم تسنح الفرصة لهيلين ان تبحث عن أية وسيلة للهرب. استيقظت بعد حقل العشاء بصداع وحرقة في حلقها ورشح في أنفها. وعندما أحضر لها بولت الافطار أصرّ على أخذ حرارتها وعدم مغادرتها الفراش.

وعندما اعترضت على ذلك لئلا تحمّله أعباء إضافية، قال مؤنباً:

«هل تريدين أن تصابي بالتهاب رئوي؟ أظن أنك أصبت ببرد منذ ليلة وصولك وأنت مبتلة تماماً. ابقي حيث أنت وسأحضر لك زجاجات ماء ساخن، فإنك لا تستطيعين النزول وأنت تعلمين ذلك».

وكانت تعلم ذلك فعلاً لأنها كانت تشعر بتعب شديد وقد أراحها أن تترك نفسها في عناية بولت وهي متأكدة أن ذلك لن يضايقه. ولم ترد أن تفكر فيما قد يكون ردّ فعل دومينيك لايول. كما أنها لم تفكر فيه طوال اليوم وهي مستلقية في الفراش تعاني من الصداع.

وفي الصباح التالي شعرت ببعض التحسن ولكن ليس لدرجة تسمح لها بترك الفراش. وأحضر بولت لها كل وجباتها في غرفتها بدون إشعارها بأي حرج. كما أحضر لها بعض الكتب. وأمضت هيلين يومها في القراءة والنوم ومحاولة استرداد قواها.

وفي مرة أو مرتين، سمعت وقع أقدام على السلم، فتوترت متوقعة أن يأتي دومينيك لايول ليسأل عنها، لكنه لم يفعل، ولم يأت أحد الى غرفتها سوى بولت. وفي اليوم الثالث كانت قد شفيت تماماً وعندما أحضر لها بولت

إفطارها وأكد أنها يجب أن تبقى في السرير رفضت ضاحكة وهي ترجوه أن يسمح لها بالنزول.

«لقد تحسنت كثيراً ـ حقاً! وأريد أن أشكرك على عنايتك بي وإحضارك الأدوية وزجاجات الماء الساخن. أنا لا أعرف كيف أشكرك».

هز بولت رأسه قائلاً:

«كنت سعيداً بذلك يا آنسة».

«هيلين».

فضحك وقال:

«حسناً ـ يا هيلين ـ أرى أنك تحسنت ولكني أقترح ألا تتركي فراشك حتى بعد الظهر. اعطي نفسك راحة أكبر. فإنك لم تبقي في الفراش إلا يومين».

فقالت وهي تنظر إلى الصينية:

«سأفكر في الأمر... ما هذا؟ عش غراب ولحم... سأستمتع به».

وبعد انصراف بولت تناولت هيلين إفطارها ثم ذهبت نحو النافذة وكان يوماً جميلاً ـ كانت هناك بعض الغيوم لكن على الأقل لم يسقط الثلج منذ مرضها. ونظرت إلى غرفتها ثم قررت أن تغتسل وتنظف أسنانها.

ضاقت بوجودها في الغرفة ـ وهي الآن تحسنت وتريد أن تخرج وتتحرك.

ورفضت أن تفكر في دومينيك لايول. إنه لم يحاول حتى أن يحضر ويسأل عنها، ولم تستطع إلا أن تشعر بالضيق من ذلك.

وارتدت بنطلون جينز ضيقاً وقميصاً بيج وأخذت صينيتها ونزلت إلى الطابق الارضي. ولم يكن بولت في المطبخ فوضعت الصينية ونظرت حولها. تعجبت أن هذا المكان أصبح مألوفاً لديها ويثير فيها شعوراً بالترابط لم تشعر به أبداً في المنزل حيث يعيش والدها مع إيزابيل.

وأزاحت شعرها وراء أذنيها، ونظرت من نافذة المطبخ وهي تتساءل أين يمكن أن يكون بولت. هل ذهب إلى المتاجر مرة ثانية أم أنه في الخارج يطعم الحيوانات. كان باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه، وصدر صوت من داخله جعلها تستدير باستغراب.

«بولت؟ بولت... هل هذا أنت؟»

ذهبت الى باب المخزن ونظرت فلاحظت أن هناك باباً آخر في نهاية المخزن من الناحية الأخرى، وأنه مفتوح أيضاً. فقطبت جبينها ثم سارت ببطء حتى الباب الآخر ونظرت منه فرأت سلالم تنزل إلى أسفل.

وشعرت بقشعريرة من الاثارة. إنه كالقصة التي كانت تقرأها أمس ـ باب سري يؤدي إلى سلالم مخبأة. وبعدها... بدأت تنزل السلالم. إنها متأكدة أن بولت موجود تحت وفي الأغلب أن هذه السلالم تؤدي إلى مخازن البيت حيث يحتفظون بالمؤن.

وفي نهاية السلّم بدا أن ما خمنته كان صحيحاً. كانت تقف في قبو مضاء بمصباح واحد معلّق. ولكن بولت لم يكن موجوداً وكان هناك باب آخر مفتوح. شعرت بأنها تتطفل وهي تسير نحو الباب الداخلي وتفتحه بهدوء. كتمت شهقة كادت تفلت منها عندما رأت ماوراءه. لم يكن هذا قبواً عادياً وانما قاعة رياضية مجهزة أحسن تجهيز بأحصنة خشبية للقفز وقضبان حائط وحلقات معلقة في السقف وحبال وكيس ملاكمة وآلات للتمرينات. وسارت إلى منتصف الغرفة تنظر حولها بدهشة. فهمت لماذا لا يوجد أي شحم أو زيادة في الوزن لدى دومينيك رغم عدم الحركة المفروض عليه.

وفي نهاية الصالة كان هناك باب يفتح على غرفة للملابس مبطنة بالخشب وملحق بها حمام. الغرفة هنا ساخنة والجو رطب ووجدت هيلين نفسها تتصبب عرقاً. كانت السخونة تأتي من خلف باب آخر وبدون تفكير أدارت المقبض ونظرت إلى الداخل.

ملأها شعور بالاثارة الشديدة. كانت الغرفة الداخلية عبارة عن حمام سونا مضاءة بنور برتقالي ضعيف. وجوّها شديد الحرارة. وكان يتوسطها مصطبة ينام عليها رجل على وجهه. وفي اللحظة نفسها التي تحققت أنه دومينيك الذي قال بصبر نافد:

«بحق السماء يا بولت أسرع. إن لدي عملاً أريد إنجازه».

وحبست هيلين أنفاسها. لقد سمع الباب ينفتح وافترض أن بولت هو

الذي دخل. فإذا استدار الآن ورآها ماذا ستفعل؟ اشتعل خداها. لم تر رجلاً عارياً من قبل.

وبينما هي مترددة تفكر في إغلاق الباب والهروب تكلم مرة أخرى. قال وهو يشير إلى نقطة في ظهره:

«هنا يؤلمني!»

شعرت هيلين بمعدتها تنقبض بعصبية. إذا لم تتحرك بسرعة سيستدير ويراها. يجب أن تذهب الآن بينما الفرصة مؤاتية ولا تجازف باكتشافها هنا. ولكن شيئاً أقوى من رغبتها في الهروب كان يدفعها للبقاء. كانت تعلم أنها تتصرف بغباء، وأن هذا الموقف سيعرضها لمزيد من الاذلال. لكنها أغلقت الباب ودخلت الغرفة. خيّل اليها ان بولت مدلك، وهي تعرف عن التدليك ما فيه الكفاية لتحلّ محله.

كانت يداها ترتعشان، وعندما وضعتهما على ظهره وبدأت تدلك العضلات التي تسند العمود الفقري، وبينما هي تفعل، تخشب جسمه لحظة وظنت أنه سيستدير ويواجهها، ولكنه استرخى مرة أخرى، فاستعادت ثقتها بنفسها، وأخذت تدلكه بقوة أكبر وتنشط الدورة الدموية. كانت الحرارة في الغرفة تجعل جسمه رطباً ولأنها كانت مرتدية كامل ملابسها شعرت بالحرارة الشديدة. أسرع تنفسها وبدأت ذراعاها تؤلمانها وشعرت بأنها لن تستطيع أن تكمل. وفي هذه اللحظة استدار على ظهره وسحب منشفة غطى بها نفسه.

فتحت هيلين فمها في انزعاج ولكن عينيه كانتا تعبران فقط عن إعجابه. قال بلا أثر للحرج:

«انت ماهرة!»

ولكن هيلين كانت خجلة لأنها استمتعت بعملية تدليكه وقالت:

«كيف علمت أنه أنا؟»

ابتسم دومينيك ابتسامة كسولة أظهرت أسنانه البيضاء المنتظمة:

«لأن يدي بولت أثقل كثيراً. لماذا فعلت ذلك؟»

نظرت هيلين إلى يديها المبتلتين وقالت بأمانة:

«لأني أردت».

ضاقت عينا دومينيك وعلق بهدوء وهو يجلس على المصطبة بحركة واحدة مرنة:

«ما تقولينه مثير جداً».

«هل هو كذلك؟»

كانت سعيدة أن الضوء البرتقالي يخفي احمرار وجهها.

«أنت تعلمين ذلك».

كان العرق يتصبب من ذراعيه وصدره ولون شعره أغمق بفعل الرطوبة ولكن هيلين لم تذهب. ونظر إليها ولم تكن في نظرته تلك السخرية التي اعتادتها بل بالعكس كانت فيها رقة مقلقة. شعرت بحلقها يجف. مد يده وجذبها نحوه. لم تتحرك رغم ذلك ووقفت متسمرة في مكانها. قال بصوت مبحوح:

«أوه يا هيلين!»

سحبها نحوه وأخذ يقبل وجهها. وقفت في هذا الوضع المنحني وركبتيها ترتجفان وهي تنتظر ذلك الشعور بالنفور الذي كانت تشعر به كلما لمسها مايك. لكن هذا الشعور لم يأت بل بالعكس. أخيراً دفعها بعيداً عنه وقام وسار ببطء وهو يعرج ويضع ثقله على ساقه السليمة قائلاً:

«هذا جنون».

راقبته هيلين بعجز ثم تمتمت:

« دومينيك... دومينيك ماذا بك؟»

ونظر إليها بنفاد صبر من خلف ظهره ثم قال بعنف:

«بحق السماء يا هيلين... لا يمكن أن تكوني بهذه السذاجة! إنك تعلمين ماذا بي. هل لديك فكرة عما تفعلينه بي؟»

أجابت:

«أعلم ما تفعله أنت بي».

استدار ونظر إليها بضيق ثم قال بعنف:

«ما كان يجب أن تنزلي إلى هنا. ما كان يجب أن أتركك...»

توقف فجأة ثم قال:

«أظن أنه من المستحسن أن تذهبي».

حملقت فيه هيلين غير مصدقة. لم تستطع أن تقبل صرفه لها بهذه الطريقة المقتضبة. كانت تشتعل بعاطفة لا تستطيع فهمها تماماً. ولكنها تعرف أن دومينيك هو محورها.

بدأت تقول:

« دومينيك... أرجوك لا تغضب».

«أغضب؟ أغضب؟ كيف تتوقعين أن أغضب؟»

ونظر إلى فخذه المصاب ومرّت بوجهه نوبة من الألم:

« هيلين. اخرجي من هنا الآن قبل أن أغيّر رأيي».

ولم تتحرك هيلين. انفتح الباب ودخل بولت إلى الغرفة كما دخل ذلك المساء منذ ثلاثة أيام ولكن ردّ فعله هذه المرة كان أكثر حدة. صاح:

« هيلين... إنك مبتلة تماماً».

جاء إلى جانبها ووضع يده على جبهتها:

«انت ساخنة جداً. ماذا بحق السماء كنت تفعلين؟»

تحوّلت نظرته إلى دومينيك فتغيّر تعبير وجهه.

«هل تريدين أن تمرضي مرة أخرى؟»

أشاحت هيلين بنظراتها بعيداً عن عيني دومينيك:

«أنا بخير... يا بولت حقاً. أنا ساخنة لأن الغرفة هنا ساخنة. هذا كل ما في الأمر. وأنا مبتلة لأني عرقت».

قال بخشونة:

«أقترح أن تدخلي الحمام وتستعملي الدوش. وإذا أخبرتني أين ملابسك سأحضر لك غياراً».

«ليس هذا ضرورياً حقاً».

أجاب بولت وهو يضع زجاجة الزيت التي كان يحملها:

«بالعكس ـ أظن أنه ضروري جداً ـ أظن أنك لن تتضايق من الأنتظار بضع

دقائق أخرى ـ أليس كذلك يا سيدي؟»

هزّ دومينيك رأسه واستدار بعيداً. أخذ بولت ذراع هيلين وجذبها بإصرار خارج السونا إلى غرفة الملابس، وقال وهو يشير إلى الدوش ويغلق السونا بحزم يعكس مشاعره الحقيقية:

«هذا هو الدوش ـ والآن أين ملابسك؟»

احمرّت هيلين خجلاً ولكنها رأت أنه لا مفر من الموافقة:

«ستجد ملابسي الداخلية في الدرج وبنطلوني الجينز والفانلة التي كنت ألبسها منذ عدة أيام معلقتين في الخزانة.

سرّ بولت ورد قائلاً:

«حسناً. والآن خذي الدوش وسأحضر لك ملابسك قبل أن تنتهي».

كان الدوش الساخن منعشاً ولكن أفكارها كانت ما زالت مع دومينيك لايول. عاشت مرة أخرى الدقائق الأخيرة بكل تفصيلاتها وهي تشعر بالاثارة.

أغمضت عينيها وشعرت مرة أخرى باحتياجها إليه، وتساءلت كيف استطاعت أن تتصوّر أنها بلا عاطفة؟ إن أحداً من قبله لم يثرها بهذه الطريقة لكنه استطاع أن يفعل ويتركها وهي أشدّ اشتياقاً له من ذي قبل.

واشتعل خداها احراراً. كيف تتمنى الحب مع رجل يحبسها؟ لابد أنها مجنونة كما قال.

تمالكت نفسها وبدأ جسمها يهدأ ـ لقد سمحت له أن يوقعها في شباكه وهي غير منتبهة. ولكن هل هذا صحيح؟ ألم تكن غلطتها تماماً أنه لمسها؟ ألم تستثره هي بلمسة يديها له؟

كان هناك طرق على الباب. فقالت وهي ترتجف:

«من هناك؟»

«أنا بولت. ملابسك خارج الباب وسأذهب لأعطي السيد لايول علاجه. هل يمكنك أن تتصرفي بمفردك؟»

أجابت بالايجاب وعندما خرجت من قاعة الرياضة لتحمل ملابسها شعرت

بالانتعاش. وتساءلت ماذا يمكن أن تفعل بملابسها القذرة، فليس لديها مسحوق للغسيل. ولكن لابد أن بولت لديه ويمكن أن تقوم بغسلها بنفسها. وقررت أن تتركها في المطبخ حتى وقت الغداء لكن عندما وصلت إلى الطابق الأرضي خطرت لها فكرة مذهلة. دومينيك في غرفة السونا وبولت يدلك له فخذه ـ وهذا يعني ان المكتب فارغ.

تركت ملابسها في ركن المطبخ. وأسرعت الى الصالة وقلبها يدق بعنف. ولحسن الحظ لم تر أثراً لشيبا أيضاً رغم أنها فتحت باب المكتب بحذر شديد خوفاً منها. ولكن الغرفة كانت خالية كما تمنت. وأغلقت الباب وراءها بهدوء وأسرعت نحو النافذة حيث رأت التليفون في المرة الأولى. وسحبت الستارة جانباً. كان التليفون مازال موجوداً ويدها ترتعش وهي تمتد إليه. بمن ستتصل؟ والدها في لندن أم بالشرطة المحلية؟ لا. ليس الشرطة. قررت ذلك بسرعة. إنها لا تريد أن تدخل الشرطة في الموضوع.

ووضعت السماعة على أذنها ثم رأت مالم تكن قد رأته من قبل. كان السلك الذي يخرج من قاعدة التليفون يتدلى منفصلاً بعيداً عن الحائط إذ كان قد تم قطعه.

فألقت السماعة كأنها تحرق يدها ووقفت مشدوهة. شعرت بشعور هائل بالخيانة. في اي حال أخبرها دومينيك بعدم وجود تليفون لديه.

كانت سعيدة أن أحداً لم يرها وهي تتصرف بهذه الحماقة. وذهبت ببطء إلى غرفتها. إذن انتهت قصة التليفون، وليس أمامها إلا سيارة الجيب وهي لا تعرف حتى مكانها.

ولم تستطع النزول مرة أخرى قبل الغداء. وكانت تقول لنفسها: «إن السبب أنها مريضة ومكتئبة». ولكن الحقيقة أنها لم تكن تستطيع أن تواجه دومينيك مرة أخرى حالياً.

وعندما نزلت أخيراً وجدت بولت في المطبخ يحضر المائدة لاثنين. ونظر إليها بمرح وهو يقول:

«ها قد أتيت! بدأت أظن أني سأتناول طعامي بمفردي. هل عدت إلى سريرك».

هزت هيلين رأسها قائلة:

«لا. كنت أستريح».

«هذه فكرة حسنة».

واستمر بولت في عمله وأخذت هيلين تعبث بعصبية بالسكاكين الموضوعة على المنضدة.

«هل... هل السيد لايول يتناول غداءه؟»

قال بولت وهو يصفي البطاطس:

«إنه سيتناول شطيرة في مكتبه».

«أه...»

شعرت هيلين بخيبة أمل عندما علمت أنها لن تراه رغم كل شيء.

ونظر إليها بولت وقال:

«هيلين... هيلين لا تورطي نفسك هنا - إني أقول لك ذلك لصالحك».

ركزت هيلين بصرها على المنضدة الخشبية وقالت:

«أنا لا أعرف ماذا تقصده.

«أنت تعلمين جيداً. أنا أعلم أنه ليس من شأني. ويمكنك أن تقولي لي ذلك. ولكني لست أعمى. وأستطيع أن أعرف جيداً ماذا حدث هذا الصباح».

وجلست هيلين فجأة وهي تقول:

«هل تستطيع ذلك؟ لماذا؟ هل حدث مثل هذا هنا من قبل؟»

قال بصير ناقد:

«لا لم يحدث مثل هذا من قبل. ولكني أعرف دومينيك جيداً الآن وآمل أن تكوني على قدر من الحكمة...»

ثم توقف عن الكلام وهو يجد صعوبة في التعبير عما يريد قوله. وردت هيلين بصراحة:

«إنه لم يغوني إذا كان هذا ما تحاول أن تقوله».

واحمرّ وجه بولت قليلاً:

«أنا فقط لا أريد لك أن تتألمي».

«إنك تكرر هذا الكلام. كيف سأتألم؟»

«بالتورط مع السيد لايول».

«ألا يعتبر هذا الكلام عدم إخلاص للسيد لايول؟»

فتنهد بولت وجلس في الكرسي المقابل لها:

« هيلين دعيني أخبرك بشيء لا يعرفه إلا القليل. دومينيك يحمل نفسه مسؤولية الحادث - الحادث الذي قتل فيه شقيقه».

فحملقت هيلين بأسى:

«لماذا؟»

فتردد بولت وقال:

«لا أستطيع أن أخبرك - إلى جانب أنها قصة طويلة».

«ولكنك يجب أن تخبرني - أرجوك يا بولت أريد أن أعرف».

وهز بولت رأسه بشدة:

«إن هذا لن يعجب السيد لايول».

«هل يجب أن يعلم؟»

«وماذا سيحدث عندما تذهبين من هنا؟ عندما تعودين الى عائلتك. من أيضاً سيعلم الحقيقة؟»

«لا أحد أقسم لك».

هز بولت رأسه:

«لا أستطيع أن أصدق ذلك».

ونظرت إليه هيلين قائلة:

«أنا لا أكذب».

«أنا لا أقول إنك تكذبين. ولكن قد تقولين شيئاً بدون قصد في وقت ما».

«أوه يا بولت!»

ونظر إلى وجهها المكتئب لحظات ثم قال بتفهم:

«فات الأوان أليس كذلك؟ لقد تورطت فعلاً».

فقالت وأصابعها على خدها:

«لا أعلم».

ثم هزّت كتفيها بحدة:

«أنا لا أريد ذلك. ولا أكف عن الترديد لنفسي أنني يجب أن أكرهه لأنه يبقيني هنا رغما عني. ولكني لا أكرهه عندما أفكر أني تركت لندن هرباً من الرجال!»

قطب بولت جبينه قائلاً:

«هل أنت متأكدة أنك لا تخلطين بين العطف وشيء آخر؟»

ضحكت هيلين بلا مرح:

«لا أعلم ـ فقط أعرف أنه عندما يقترب مني...»

وتوقفت فجأة ثم سألت:

«هل عرجه شيء مستديم؟»

«نعم. إن جزءاً من عظام الفخذ تحطم في الحادث وكان على الجراحين إزالة الأجزاء المفتتة».

«آه ـ فهمت».

«في ذلك الوقت وبعدما شفي من الاصابات الأولى كانوا يريدون إجراء جراحة أخرى ووضع عظمة صناعية مكان العظمة التي تحطمت. ولكن السيد لايول لم يسمح لهم بذلك».

«لماذا؟»

«لا أعلم ـ حاول الجميع إقناعه ولكنه رفض ـ كان يبدو وكأنه يريد أن يتذكر الحادث دائماً. وبالطبع فإن فخذه يؤلمه عندما يقف طويلاً كما يؤلمه عموده الفقري ـ لذلك فالتدليك يساعده».

«أفهم».

واستطردت هيلين وهي تصغي باهتمام:

«أعرف بعض الشيء عن هذه الأمور. كانت والدتي تعاني من نوبات صداع عنيف وكانت تطلب مني أن أدلك جانبي رأسها وظهر عنقها.

ثم تردّدت:

«أوه. ألن تخبرني يا بولت لماذا يلوم دومينيك نفسه بخصوص الحادث؟»

فقام بولت واقفاً:

«إنه يعتقد أن أخاه حاول قتل نفسه لأنه اكتشف أن زوجته تحب دومينيك».

«ماذا!»

«لقد التقى فرانسيس أثر والده والتحق بالجيش. وعندما كان في قبرص قابل كريستينا وتزوجها بدون أن يخبر أحداً. ثم أحضر زوجته معه إلى البيت. كانت حقيرة. وبمجرد أن قابلت دومينيك... يحسن عدم ذكر هذا الجزء. يكفي أن نقول أنها أقنعت فرانسيس بترك الجيش ودخول سباق السيارات كشقيقه. لكن فرانسيس لم يكن يصلح لأن يكون سائقاً. لم يكن هذا يهمها ولكنه كان مفتوناً بها لدرجة أنه كان مستعداً أن يعمل أي شيء. واشترك في بعض السباقات ونجح نجاحاً متوسطاً لكن هذا لم يكفها. وكان دومينيك يكسب في السباق وهي تحب الرابحين!»

شعرت هيلين بفمها يجف:

«و... ودومينيك؟»

ابتسم بولت قليلاً:

«لا... إن دومينيك لم يكن مهتماً بها. إلى جانب أنها كانت زوجة أخيه».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

تنهد بولت تنهيدة كبيرة:

«كانت الليلة قبل سباق نوربرغرانج. وكنا جميعاً قد ذهبنا الى المانيا منذ بضعة أيام واقمنا في فندق قرب حلبة السباق. وتلك الليلة تشاجر فرانسيس وكريستينا وكانا دائماً يتشاجران. كانت تريده أن يأخذها الى النزهة بينما هو يريد أن يستريح لأن سباق السيارات رياضة شاقة جداً وتحتاج للياقة بدنية كاملة. لكنها خرجت بمفردها وتأخرت في الرجوع فذهب دومينيك وفرانسيس للبحث عنها. فوجدها دومينيك في حانة. وبالطبع كانت ثملة واضطر دومينيك أن يتشاجر مع اثنين من البحارة قبل أن يستطيع أن يأخذها ـ ولكنها فسرّت تصرفه تفسيراً خاطئاً وعندما عاد فرانسيس أخبرته أنها لا تحبه وإنما هي تريد دومينيك وأن دومينيك يشعر الشعور نفسه نحوها ورغم أن

دومينيك أنكر ذلك تماماً لكن فرنسيس لم يصدقه».

«أوه يا بولت!»

«شيء كريه ـ أليس كذلك؟»

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«إنك تعرفين الباقي ـ انزلق فرانسيس على الطريق وفقد سيطرته على سيارته واصطدم به دومينيك ويوهان باراس وقتل فرنسيس ويوهان وأصيب دومينيك إصابه خطيرة».

«وبعد ذلك ماذا حدث لكريستينا؟»

«عادت ـ كانت ما تزال تريد دومينيك ولكن هو لم يكن يريدها منذ البداية. أما بعد الحادث فلم يكن يطيق رؤيتها».

«لابد أنها كانت تحبه».

«من الجائز، بطريقتها الخاصة».

وبدأ بولت يقطع اللحم إلى شرائح:

«ولكن السيد لايول لم يكن لديه وقت للنساء منذ ذلك الحادث».

وهز رأسه:

«وكانت لتلك المأساة مضاعفات لم نكن نستطيع توقعها فقد أصيب الكولونيل لايول بالشلل عندما سمع بحادثة ولديه ولم يشف تماماً. وماتت زوجته بعد وقت قصير».

وشهقت هيلين:

«هذا فظيع».

ونظر بولت إلى وجهها المذعور:

«أنت الآن تستطيعين أن تقدري لماذا هذه القصة ليست للنشر».

«بالطبع».

شبكت هيلين يديها:

«ولكن دومينيك ليس مسؤولاً عن الحادث. أليس كذلك؟»

«بالطبع لا ـ كان الطريق مبللاً ولم تكن سيارة فرانسيس الوحيدة التي

تزحلقت، ولكن عندما يحدث مثل ما حدث وتكون علاقتك بالشخص المصاب ليست على مايرام فمن الطبيعي أن يلوم المرء نفسه إذا ما حدث مكروه. كان السيد لايول قريباً جداً من الواقعة بحيث لا يستطيع أن يرى الموضوع من بعيد ـ إلى جانب ما حدث بعد ذلك. أظن أنه كان يريد أن يبتعد عن المجتمع».

«والآن».

«لديه عمله الذي يشغله ـ فقد ألّف كتاباً قبل ذلك عن والده. وقد تحول إلى فيلم».

قالت هيلين وقد أثار ذلك اهتمامها:

«لم يخبرني بذلك. وهل كان فيلماً ناجحاً؟»

«جداً وقد درّ مالا كثيراً. لكنه لم يغيّر موقف السيد لايول».

«هل تظن أن أي شيء قد يغيّر موقفه؟»

«أشك في ذلك. لهذا شعرت أني يجب أن أخبرك».

ونظرت هيلين إلى يديها:

«أنا لست طفلة».

«أعلم ذلك ولكن لا تبني أحلامك على الرمال المتحركة. لا تتوقعي شيئاً حتى لا تخيب آمالك».

«هذا كلام متشائم جداً».

«إن السيد لايول إنسان متشائم يا هيلين وكما قلت فأنا لا أريدك أن تتألمي».

٧ ـ الهرب

في عصر ذلك اليوم بدأ الثلج يتساقط مرّة أخرى. واستدارت عن النافذة وأخذت تعاين المطبخ الفارغ. خرج بولت ليهتم بالحيوانات وأصرّ أن تبقى في الداخل. لم تعترض لأنها كانت تشعر بالارهاق وعدم النشاط كانت تحاول أن تقنع نفسها أن هذا الشعور سببه الأيام التي قضتها في الفراش لكنها كانت تعلم أن هذا غير صحيح. ورغم ما قاله بولت لها فإن تفكيرها ظلّ يدور حول ما حدث في غرفة السونا.

وكان تنفسها غير منتظم وهي تذرع الغرف بقلق. إنها المسؤولة عما حدث. بدأت هي بلمسه وتدليكه. ولكنه كان اندفاعاً لم تستطع مقاومته وما حدث مازال يثيرها ويجعلها تشعر بلمساته.

وصعدت إلى غرفتها وألقت بنفسها على الفراش وهي تنظر إلى ندف الثلج يتساقط خلف النافذة. بدأت تفهم أنه كلما طال مقامها هنا كلما أصبح من الصعب عليها أن ترحل. وما بدأ كحبس إجباري تحوّل إلى اسر لذيذ ولكنه أكثر خطورة. وصلت إلى الحد الذي تشعر فيه أنها لا تريد أن ترحل . وجعلتها هذه الفكرة تهب جالسة في فراشها وهي تلف ذراعيها على ركبتيها وقد قطبت وجهها بقلق. ماذا ستفعل؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟ وماذا تريد أن تفعل؟

بقيت في غرفتها حتى المساء. ثم أخذت حماماً وارتدت ثوباً طويلاً من الجرسيه الكريب الأسود الذي يظهر بياض جلدها. وتركت شعرها ينسدل على كتفيها. وعندما نظرت إلى نفسها في المرآة تأكدت أنها تبدو في أحسن صورة.

ولكن عندما دخلت غرفة الجلوس بعد بضع دقائق وجدتها خالية فأطبقت

فمها. هل سيتركها مع بولت؟ هل هذه هي طريقته ليعرفها أن ما حدث بينهما لن يتكرر؟ ووقفت في وسط الغرفة تعض على شفتيها عندما انفتح الباب، ولكن القادم لم يكن بولت كما توقعت بل دومينيك لايول.

كان يرتدي هذا المساء قميصاً حريرياً كحلياً وبنطلوناً أزرق. ونظر بوقاحة إلى ملامح هيلين المنتظرة فلم تستطع أن ترد نظرته. وعندما انتقلت نظرته إلى أسفل أرخت عينيها باضطراب.

ثم فتر اهتمامه ودخل الغرفة وهو يعرج، وأغلق الباب وراءه مرّ بجانبها فلمس طرف ثوبها بقدمه ثم ذهب ووقف مديراً ظهره الى المدفأة.

«بحق السماء لا تنظري إليّ هكذا كأنك تخافين مني».

قالت هيلين رغماً عنها:

«أنا لا...»

ثم تنهدت واضافت:

«كيف حالك هذا المساء؟»

وضاقت عينا دومينيك:

«تقصدين بعد تدليكك الفني؟»

اشتعل خداها:

«لا تضايقني».

«هكذا؟ إذن ماذا أفعل بك».

«تستطيع أن تسأل عني».

ولوى شفتيه:

«هل هذا ضروري وأنت تبدين في أحسن حال؟»

«لم تحاول أن تأتي وتسأل عني وأنا مريضة».

«هل كنت تريدين ذلك؟»

فأحنت هيلين رأسها:

«التصرف المهذب يقتضي ذلك».

«ولكنك لا تتوقعين التصرف المهذب مني؟ أليس كذلك؟ كما أتذكر، أنت

تجدينني منحرفاً فاسداً ومشوهاً عقلياً وجسدياً».

ونظرت إليه هيلين وهي ترتعش:

«هذا كان في البداية قبل أن أعرفك».

«إنك لا تعرفينني يا آنسة جيمس».

نظرت إليه باستعطاف:

«أوه أرجوك ـ ألا تستطيع أن تتصرف بلطف».

«إذا كنت تقصدين أن نتكلّم عن مواضيع غير شخصية فهذا ممكن ـ عم تريدين أن تتكلمي؟»

ضغطت هيلين قبضتيها في إحباط

«إنك تسيء فهمي عن عمد».

«بالعكس يا آنسة جيمس. أفهمك جيداً».

ومن الجائز أن دخول بولت في هذه اللحظة وهو يحمل العشاء ذا الرائحة الشهية كان من حسن الحظ كانت هيلين تنتظر أن يدعو دومينيك الخادم لينضم إليهما في العشاء كما فعل من قبل، ولكنه لم يفعل مما أثار دهشتها ودهشة بولت على السواء.

وحاول دومينيك أثناء تناولها الطعام أن ينفذ ما طلبته بالحديث في مواضيع مختلفة. تكلّم عن كتب قرأها وأماكن زارها كما شجعها على الكلام عن حياتها مع والدها وزوجة أبيها. ووجدت نفسها تخبره بما أخبرت به بولت، وتنصت إلى تفسيره لتصرّف والدها، وقد بدأت تفهم من خلال كلامه الشعور بالوحدة الذي شعر به والدها عند وفاة والدتها، والذي دفعه للرغبة في النجاح كنوع من التعويض عن خسارته. وقدرت فهمه العميق، الشيء الوحيد الذي لم تناقشه معه هوارتباطها بمايكل فراملي. ولكن هذا لم يكن موضوع مناقشة.

شجعتها رقته فقالت:

«أظن أن كل شخص محتاج لرأي موضوعي كي يفهم مشكلته الخاصة. أقصد، في حالتك مثلاً. كنت متأثراً لدرجة أنك لم تستطع أن تنظر إلى حادث شقيقك نظرة واضحة».

على الفور جمدت عينا دومينيك:

«من أخبرك عن حادث شقيقي؟ أوه ـ لا تتعبي نفسك بالرد ـ أنا أعلم ـ إنه بولت. كان يجب أن أعلم أنه لن يستطيع أن يبقي فمه القذر مقفولا».

شعرت هيلين باحساس مريع:

«أوه أرجوك ـ لا تلم بولت. أنا المسؤولة اذ سألته فأجابني ـ هذا كل ما في الأمر».

«ليس له الحق في مناقشة اموري مع أحد».

«لم تناقش أمورك. أخبرني فقط بالوقائع».

وقام دومينيك واقفاً. وقد أجفل من الألم الذي سببته له الحركة المفاجئة. وقف لحظة وهو ينظر إلى رأسها المنحني ثم سار يعرج ببطء عبر الغرفة وكل موقفه يعبّر عن العنف المكبوت. ونظرت إليه هيلين ثم قامت من كرسيها وركعت على الأريكة وهي تنظر إلى ظهره العريض وتحاول أن تخلّصه من مرارته التي لا داعي لها.

«دومينيك».

استدار ونظر إليها ببرود.

«دومينيك... ماذا يهم ما قاله لي بولت؟ حدث هذا منذ وقت طويل ـ لماذا لا نتحدث؟»

وقف وهو يستند بثقل على ساقه غير المصابة:

«بأي حق تعتقدين أني أريد الكلام عن الحادث معك؟»

رفضت هيلين أن تتركه يخيفها:

«أريد أن أساعدك».

«حقاً؟»

عاد يعرج إلى الأريكة.

«بأي شكل يمكنك أن تساعديني؟»

وشعرت هيلين بالاحتقار لنفسها لأنه استطاع أن يثير فيها شعور القهر رغماً عنها.

«بمساعدتك على رؤية الحقائق كما هي. بأن أبين لك أن الناس ليسوا بدون شعور

كما تظن. يجب أن تتعلم أن تعيش مع الناس مرة أخرى».

«وما رأيك إذا قلت لك إني أفضل حياتي كما هي الآن؟ وليست لدي الرغبة في العيش كما تتكلّمين؟»

وشعرت هيلين بالهزيمة لكنها قالت:

«كيف يمكنك أن تعرف ذلك؟ إنك لم تحاول ـ أظن أنك خائف.»

فالتفت حول الأريكة بحركة واحدة سريعة وأمسك شعرها بيده وهو يلفه حول أصابعه حتى اهتز رأسها بشدة وألمها وسألها بقسوة:

«ما الذي تعرفينه عن هذا الموضوع؟ إنك تتكلّمين عن الموضوعية وعن الفهم ـ ما الذي تعرفينه عن هذه الأشياء؟ ما الذي تعرفينه عن الرقاد شهوراً في سرير مستشفى وأنت أقرب إلى الموت من الحياة تتمنين لو كنت أنت الضحية ـ هل تستطيعين أن تكوني موضوعية حينئذ؟ هل تستطيعين أن تفهمي تلك القوة التي تدمر إنساناً وتترك الآخر مشوهاً مدى الحياة؟»

فقالت باحتجاج وهي ترفع يدها الى رأسها الذي يؤلمها:

«لماذا رفضت إجراء العملية الجراحية؟»

«كنت أفضل أن أتذكر الحادث، إلى جانب أني لا أريد أي تركيبة غريبة في جسمي. فخذي قد يكون ملتوياً ولكنه فخذي وليس صورة محسنة منه».

« دومينيك إنك تؤلمني».

«هكذا؟ إذن كوني موضوعية».

قال ذلك وهو يصدر صوتاً منكراً ساخراً.

واتسعت عينا هيلين بألم وعدم تصديق وقالت بصوت مبحوح:

«إنك لا تعني ذلك؟»

فاسوّد وجهه وصدرت عنه آهة تعبر عن لوعة لنفسه ثم جلس بجانبها على الأريكة وأخذ يدها بين يديه ورفع راحتيها إلى شفتيه ـ ثم قال بصعوبة:

«أرجوك لا تنظري إليّ هكذا ـ لا أريد أن أؤذيك ولكنه رغماً عني.»

نظرت هيلين إلى رأسه المحني وضغط فمه على راحتيها يثيرها. ارتعشت فنظر إليها وعيناه تعبران عن عواطفه. وضع يده خلف عنقها ثم لمس جسمها

الناعم.

لم تستطع هيلين أن تتحرك وحتى لو أرادت ذلك ـ كان تأثيره عليها قوياً لدرجة أنها كان يمكن أن تستسلم. واقترب منها أكثر وضمها إليه.

«أوه يا هيلين أنت لا تعلمين ماذا تفعلين بي».

أصبحت لا تهتم بشيء ولفت ذراعيها حوله. شعرت بأطرافها تتخدر وتمنت لو استطاعت أن تقضي الليل كله هنا في هذه الغرفة الدافئة المضاءة ـ همست تحت فمه:

«إني أحبك يا دومينيك».

فخشّب جسمه على الفور وابتعد عنها وهو ينظر إلى السقف وقد تجمدت ملامحه.

وقالت مرّة أخرى وهي تعتدل مستندة على مرفقها:

« دومينيك؟ ماذا حدث؟ قلت إني أحبك ـ أنا فعلاً أحبك»

ردّ بعنف وهو يقوم عن الأريكة:

«لا تقولي هذه الأشياء لي. إنك لا تعرفين عما تتكلّمين».

«أعرف ـ ما الأمر؟ ماذا حدث؟»

نظر إليها ببرود وهو يصلح ملابسه ثم قال بصراحة:

«أنا لا أحبك. بالنسبة اليّ الحب لا يدخل في هذا...»

لم تستطع هيلين أن تكتم الشهقة التي أفلتت منها.

«ولكن...ولكن الآن...»

قال بقسوة:

«كنت أريد أن . . . ظننت أنك كنت تريدين الشيء نفسه».

«فعلاً...»

«إني أسأل! هل كنت مستعدة أن تنسي كل شيء عن الموضوع بمجرد انتهائه».

«أنسى كل شيء عن الموضوع؟»

قالت هيلين وهي تعتدل وتضم فتحة ثوبها:

« دومينيك ـ أنا لا أصدق أنك لا تحبني».

نظر إليها بوجوم للحظة ثم عرج نحو كرسيه وجلس عليه ومدّ يده وسحب زجاجة الشراب.

«اتساءل لماذا لا تستطيع النساء أن تفهم أن الرجال يمكن إثارتهم بدون أن يكون لديهم أكثر من الرغبة البحتة».

فظهر شعور هيلين بالغثيان، من تعبيراته، على وجهها ثم قالت:

«أظن أن كلامك هذا مقزز».

«ماذا تتوقعين من شخص منحرف ومشوّه مثلي؟»

«أوه يا دومينيك!»

«اسكتي!»

تمتم بذلك وهو يرفع الكأس الملأى إلى شفتيه.

«لا أريد أن أتكلم ثانية عن هذا الموضوع. ولا أريد أن أتكلّم معك ثانية. إنك تجعلني أشعر بالتقزز».

وكتمت هيلين بكاءها.

«كفى! كفى ترديد هذا الكلام أنا أعرف أنك لا تعنيه. أنا لا أصدقك».

«لم لا؟ هل فكرتك عن نفسك عالية الى هذه الدرجة؟ أؤكد لك أن ما حدث بيننا الآن وقع بيني وبين أخريات من قبل. بل وباستمتاع أكثر».

كان هذا أكثر مما تستطيع سماعه فوقفت محاولة المحافظة على كرامتها قدر استطاعتها وقالت وهي تنظر إليه بعينين معذبتين:

«أظن أنك كريه ـ كريه! لا أعرف كيف تخيّلت أنك رجل محترم؟ وكيف تركتك تلمسني. إنك حقير. حقير. أنا أحتقرك بشدة!»

«حسناً».

قال وهو يستلقي في كرسيه بلا اهتمام:

«هذه هي الطريقة التي أحبها ـ والآن بما أن هذا منزلي أرجو أن تخرجي من الغرفة لأني أنوي أن أشرب حتى الثمالة».

وجرت هيلين أذيالها وهي تصعد إلى غرفتها. كانت تخشى أن يظهر بولت ويسألها إذا كان كل شيء على ما يرام، لأنه لو حدث هذا لانهارت تماماً أمامه.

لكنه لم يظهر ووصلت بسلام وبمجرد وصولها انهارت على السرير وأخذت تبكي بحرقة استمرّت بضع دقائق وعندما انتهت العاصفة ظلت راقدة تشعر أن كل قوتها خارت.

قامت وخلعت ثوبها الأسود بغيظ وهي تشعر أنها لا تريد أن تراه ثانية وألقته تحت الخزانة ثم وقفت بملابسها الداخلية تتساءل. «كيف ستقضي يوماً آخر في منزل دومينيك لايول».

لم تكن هناك فائدة من أن تكرر لنفسها ما قالته له من أنه كريه وحقير وتقنع نفسها بأن تكرهه، لأنها تعلم أن هذا غير صحيح وأنها تحبه. نعم إنها تحبه حقاً وهذه الحقيقة أقسى على نفسها من الغضب والاحباط الذي شعرت به الأيام الأولى.

إذن كان بولت محقاً فيما قال وعليها أن تتصرف الآن. بالطبع لم تكن تستطيع أن تلجأ الى بولت ليساعدها ولكن كان مازال هناك إمكانية استخدام سيارة الجيب. وكلما فكرت في الأمر كلّما تأكد لها أنها يجب أن تهرب من هنا قبل أن تحدث كارثة أكبر.

تنهّدت وسألت نفسها:«ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟» وردت على نفسها: إن البقاء هنا مع دومينيك لايول يؤثر عليها تأثيراً غريباً وتخشى أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه أن تمنع نفسها من الانزلاق إلى تلك العلاقة المحرّمة. إنها تعلم أن هذا يمكن أن يحدث، ورغم ما قاله فهي تعلم أنه يجدها جذابة ولكن دوافعه ليست مخلصة كدوافعها.

وهزّت رأسها ثم أخرجت بنطلونها الجينز وفانلة وارتدتهما. وأخذت تفكّر في موقفها: الساعة تجاوزت العاشرة وسيذهب بولت بعد قليل لينام، وإذا نفّذ دومينيك ما قاله وشرب حتى الثمالة فلن تكون هناك مشكلة معه. إذن لم يبق إلاّ شيبا. قال بولت إنها تنام في المطبخ. هذا يعني أنها يجب أن تخرج من الباب الأمامي، ولكن لسوء الحظ الباب الأمامي قريب جداً من باب غرفة الجلوس ولكن هذا أمر لا مفرّ منه. وفكّرت بتشاؤم إن عليها التصرف الآن وإلا فلن تكون أمامها فرصة أخرى.

وعندما أصبحت الساعة الحادية عشرة والنصف كان المنزل هادئاً كالقبر. ونظرت من خلال النافذة فوجدت الثلج مازال يتساقط. ولكن هذا لا يهم! ولكن مع كل هذا الثلج فإن آثارها ستبقى واضحة. ونزلت بهدوء ثم أحضرت معطفها من غرفة الملابس بالصالة. إنها لن تأخذ سوى حقيبة يدها. أما باقي ثيابها فلا تهمها.

كان هناك مزلاج على الباب الأمامي. قرب القفل العادي. ولحسن الحظ أن بياض الثلج الناصع كان يضيء الغرفة. فسحبت المزلاج بسهولة ثم أدارت القفل فانفتح الباب ونظرت حولها هواء الليل بارد لكن ليس لدرجة التجمّد. وتساقط الثلج بخفة على وجهها فشدت نفسها بتصميم وسارت حول المبنى. ولكن كان عليها أن تكتشف الكاراج.

كان الأمر أسهل مما تصوّرت. كانت آثار عجلات السيارة ما تزال واضحة فتتبعتها بثقة إلى مبنى كالجرن خلف حظيرة الأبقار. لم يكن الباب المزدوج مغلقاً بالقفل فقط بل مقفلا أيضاً بلوح خشبي وكادت تسقطه وهي ترفعه من مكانه، عندما انفلت بجانبها جسم أسود أملس فارتعبت. ولكنه لم يكن إلا إحدى القطط البرية التي تعيش في المباني الملحقة بالمنزل.

جعلها هذا الحادث الصغير عصبية. وعندما ارتفع صرير الباب لدى فتحه أجفلت. نظرت في الداخل وهي تركز عينيها لتعتاد الظلام. وشهقت عندما رأت أن العربة لم تكن سيارة جيب كما توقعت بل سيارتها السيور الصغيرة. التي كانت تتخيلها مدفونة في الثلج. لكنها الآن تذكرت أن دوميتيك قد طلب من بولت أن ينقلها. ومن الواضح أنه نجح. فتنهدت وتمنت لو معها المفاتيح ولو أنها استطاعت أن تديرها.

ثم أغلقت الباب بلا فائدة. في أي حال لا بدّ أن السيارة لا تعمل، ولو حاولت إدارتها فستصدر ضجيجاً عالياً بلا فائدة.

ونظرت حولها في الفناء، كانت هناك آثار عجلات كثيرة، أخذت تتفحصها فوجدتها كلها تتقاطع، ولكن لم يكن هناك سوى مبنى واحد يتسع لسيارة جيب. اقتربت منه بحرص. وكانت محظوظة هذه المرّة. فالجيب موجودة بداخله، ومن

العجيب أن المفاتيح في مكانها. لم تستطع أن تصدق هذا.

كانت يداها ترتعشان وهي تركب السيارة وتغلق بابها بهدوء. أدوات القيادة فيها لا تختلف عن السيارات الأخرى. قوست ظهرها استعداداً للصوت الذي ستصدره عند تشغيلها. وضغطت على بدال البنزين. ودبّت فيها الحياة فارتفع صوت محركها. من الآن ستكون قد أفلتت.

بعد لحظات تحركت السيارة خارجة من الكاراج واستدارت إلى اليمين حول المنزل، وتذكرت في الوقت المناسب أن تضيء الكشافات قبل أن تصطدم بشيء. ثم سارت عبر الفناء المرصوف بالحصى أمام الواجهة الأمامية. ما الذي قاله بولت من أن قيادة هذه السيارة صعب؟ الثلج المتراكم لا يمثل أية مشكلة بالنسبة اليها! لو كانت تقود سيارتها لكانت توقفت الآن، ولكن الجيب تسير بسهولة. كانت تتبع الآثار التي لا بدّ أنها آثار بولت عند ذهابه لمكتب البريد وكانت منفعلة بما يكفي لاسكات الشعور بالخيانة الذي بدأت تحسه. لن تفكر في الصدمة التي سيصاب بها دومينيك لايول عندما يكتشف أنها ذهبت أو لوم وخيبة أمل بولت لأنها بعد كل ما حدث لم تكن جديرة بالثقة. إنها تهرب وهذا كل ما ستفكر فيه. حققت المستحيل. كان أمامها مرتفع من الثلوج، وبطريقة آلية ضغطت على البنزين قفزت السيارة إلى الأمام متخطية الثلج، وزادت سرعتها وهي تنحدر بعد ذلك. شعرت هيلين بالانزعاج، رفعت قدمها على الفور عن البنزين، فقد كانت تسير بسرعة كبيرة ويجب أن تخفف حتى تستطيع أن تلف المنعطف المقبل. ضغطت قليلاً على الكابح رغم أنها تعلم أن هذا تصرّف خطر فانحرفت السيارة وهي تلتف في نصف دائرة، ولكن هيلين حاولت السيطرة على أعصابها، واستمرت في القيادة على الطريق الزلق. لكن الطريق كان ضيقاً بفعل تراكم الثلج على الجانبين حتى أن مؤخرة السيارة اصطدمت بكتلة من الثلج وارتدت مرة اخرى إلى الطريق. وضغطت على أسنانها في محاولتها للتركيز وعدم الاضطراب، وحاولت السير في منتصف الطريق مرة أخرى. ولكن دولاب السيارة انحرف جانباً واصطدمت بجسر الجليد على الجانب الآخر من الطريق.

كانت تجربة مخيفة، خاصة أن السيارة تسير بسرعة كبيرة في الممر الضيق، وترتطم في هذا الجانب ثم في الجانب الآخر. ورأت المنعطف أمامها، وحاولت أن تدير عجلة القيادة لكنها فقدت السيطرة عليها تماماً. فاصطدمت في الكتلة أمامها وألقتها للأمام فارتطم رأسها بشدة في عجلة القيادة. عندما فتحت عينيها وجدت نفسها راقدة على الأرض في الطريق وصوت ظنت أنها لن تسمعه ثانية يقول:

«هيلين! هيلين هل أنت بخير؟»

تركزت عيناها على الرجل الذي يركع بجانبها. وعلى شعره الكثيف ذي اللون الرمادي الفاتح وقد سقط على جبهته. وعلى ملامحه السمراء المنحوتة وعينيه الصفراوين الغريبتين وقد بدا فيهما الاهتمام وهو ينظر إليها.

تمتمت بصوت خفيض:

« دومينيك ـ أوه يا دومينيك ـ لقد اصطدمت!»

«اعرف».

كانت تبدو على وجهه علامات الاجهاد:

«أيتها الغبية الصغيرة! كان يمكن أن تقتلي نفسك!»

«هل كنت ستهتم؟»

غمغم ثم قام واقفاً فجأة:

«نعم كنت سأهتم».

وقف بصبر نافد ينظر إلى الطريق...رفعت هيلين رأسها بحذر ـ لم يكن بها شيء على ما يبدو، عدا ما شعرت به من صداع عنيف.

وقامت جالسة وهي تنفض الثلج عن كتفيها. استدار دومينيك إليها أمراً:

«أبقي كما أنت! سيحضر بولت الجرار حالا ويشد السيارة من البركة».

تجاهلت هيلين أمره وقامت بشيء من عدم الاتزان. استدار إليها دومينيك وقال بضيق:

«قلت لك أن تبقي حيث أنت».

فردت كتفيها في محاولة للتحدي واحتجت قائلة:

«لا تستطيع أن تعطيني أوامر أنا لست بولت».

وكان يبدو عليه التفكير والاكتئاب:

«لاحظت ذلك، إن بولت ليس بهذه الدرجة من الازعاج».

«أنا أسفة».

وكانت قد بدأت تفقد ما تبقى لها من تماسك. كان الموقف أكثر مما تستطيع أن تحتمل ـ اتهامه القاسي لها هذا المساء. ثم التوتر الذي سببته محاولتها الهروب من المنزل. وأخيراً جاء هذا التصادم والنهاية التعسة لكل آمالها كآخر قشة تتعلق بها.

وشعرت بالدموع تنهمر على خديها فهي لم تشعر بمثل هذا الشقاء من قبل.

وسمع دومينيك بكاءها المكتوم فاستدار ونظر إليها. كانت في حالة سيئة. الثلج ما زال عالقاً بشعرها وملابسها، وشعور بالهزيمة الكاملة على وجهها.

قال بصبر نافد:

«أوه يا هيلين!»

وقبل أن تفهم ما يفعله، رفعها بين ذراعيه وأخذ يسير نحو المنزل. لفت ذراعيها حول عنقه ورأسها يستند إلى صدره وبدأت تشعر بالدفء الجميل يسري فيها ولكنها تذكرت عرجه:

«أرجوك ـ أنزلني. أستطيع أن أمشي ـ لا يجب أن تحملني».

قال بتوتر:

«أنا لست عاجزاً تماماً».

حاولت أن تجعله ينظر إليها ولكنه لم يفعل فاكتفت بأن تستمتع بوجودها بين ذراعيه. وسارا لعدة دقائق في صمت.

وعندما وصلا إلى المرتفع الذي كان السبب في بداية مشاكلها سمعت صوت الجرار فأدارت رأسها ورأت بولت يتجه نحوها وتوقف أمامها تماماً ونزل ووجهه ينطق بالغيظ:

«حضرت بأسرع ما يمكن».

صاح وهو يهز رأسه.

«هانها ـ هل إصابتها خطيرة؟»

رفعت هيلين رأسها وردت:

«أنا بخير يا بولت حقاً».

ولكنها لاحظت أن كلّ اهتمامه كان موجهاً الى مخدومه.

وأعطاها دومينيك لبولت فشعرت هيلين كأنها رزمة غير مرغوب فيها وقالت محتجة:

«أنزلني ـ أستطيع أن أمشي».

ولكن أحداً لم يلتفت إليها. سارا المسافة القصيرة المتبقية حتى وصلا وقد جعلاها تشعر بشدة أن عرج دومينيك أزداد، وأن بولت يلومها على ذلك، ففكرت بأسى أنها السبب رغم كل شيء.

كان دخولها المنزل مرة أخرى شيئاً غير سار وقد أنزلها بولت في الصالة قائلاً:

«اذهبي الى سريرك يا آنسة وسأحضر لك مشروباً ساخناً بعد قليل».

«هذا ليس ضرورياً».

وبدأت تتكلم لكنها وجدت أنها تكلّم نفسها. سار دومينيك يعرج إلى غرفة الجلوس وذهب بولت وراءه وأغلق الباب بشدة كأنه كان يعاقب هيلين. ونظرت إلى أعلى السلالم ودمعت عيناها مرّة أخرى. فمن الواضح أنه لا يهمها أن محاولة الهرب مرة أخرى هذه الليلة ـ ولكن من يستطيع أن يلومها؟ إلى جانب شعورها أنها محطمة لدرجة تشك معها في قدرتها على جمع شجاعتها وحماسها لتحاول ذلك ثانية.

٨ ـ من سجن الى سجن

أغلق الاجهاد عينيها بمجرّد أن وضعت رأسها على الوسادة. ولم تشعر إلا بطلوع النهار. فنهضت جالسة في السرير وهي تتوقع أن تجد الصداع مازال يؤلمها لكنها لم تشعر بألم. وعندما فحصت جبهتها وجدت كدمة بسيطة يمكن إخفاؤها بشعرها.

وأخذت حمّامها وارتدت تنورة خضراء قصيرة وقميصاً ليموني اللون وكانت تمشط شعرها أمام المرآة عندما أحضر لها بولت إفطارها. وقال وهو يضع الصينية:

«السيد لايول يريد أن يراك يا آنسة».

لم يكن في نبرات صوته ذلك الدفء الذي اعتادته.

«هل تعرف لماذا؟»

فهز بولت رأسه:

«سيشرح لك السيد لايول عندما ترينه يا آنسة».

وسار نحو الباب ـ وذهبت هيلين وراءه:

«بولت! بولت. ماذا حدث؟ أنت لست غاضباً مني لأني حاولت الهرب؟»

«لا يا آنسة».

تنهدت هيلين:

«ولكنك غاضب ـ بولت، قلت بالأمس إنك لا تريد أن تراني أتألم. بالطبع أنت تعرف أنه كلما طال بقائي هنا كلما زاد هذا الاحتمال».

«نعم يا آنسة».

«أوه... بولت. أرجوك حاول أن تفهم!»

«أفهم يا آنسة».

«إذن لماذا أنت هكذا؟»

وقطّبت حاجبيها:

«إلا إذا كنت آسفاً لأني لم أنجح».

«نعم يا آنسة».

شهقت هيلين:

«هل كنت تريدني أن أذهب؟»

«كان أفضل».

وتمتمت باستغراب:

«وكنت تتخيّل أني سأحاول. لذلك تركت مفتاح السيارة فيها».

هزّ بولت كتفيه:

«لا يوجد لصوص هنا يا آنسة ـ والمفاتيح تترك عادة في السيارة».

«ولو...»

وهزت هيلين رأسها:

«لم أكن أعرف أنك متضايق إلى هذه الدرجة».

وانطبق فكا بولت:

«وجودك هنا ضار للجميع يا آنسة».

وبهذا التعليق الغامض انصرف.

وجلست هيلين تأكل إفطارها بقلب حزين. لمدة أسبوع كان بولت سندها في مواجهة عدم اهتمام دومينيك، وصديقها رغم اختلاف دوافعها. ولكن الآن يبدو أنها ستفقد حتى صداقته. وماذا يريد دومينيك؟ أي سبب قد يكون لديه ليطلبها إلا إذا كان لمعاقبتها على تصرفاتها السيئة بالأمس.

فحصت محتويات الصينية. ما يهمّ ما بها؟ إن فكرة الأكل جعلتها تشعر بالرغبة في القيء لكنها استطاعت أن تشرب فنجان القهوة لتهدىء أعصابها.

عندما انزلت الصينية شعرت بالارتياح لأنها لم تجد بولت في المطبخ.

وبسرعة ألقت كل محتويات الصينية التي لم تذقها في صندوق القمامة وهي سعيدة أن بولت غير موجود ليرى ذلك.

وهدأت نفسها ثم خرجت من المطبخ وعبرت الصالة إلى غرفة الجلوس وفتحت الباب بحذر ونظرت في الداخل، لكن دومينيك لم يكن هناك. بالطبع لابدّ أنه في غرفة المكتب يعمل. وطرقت باب غرفة المكتب ولكن أحداً لم يرد. نظرت في الداخل فتأكدت أنه ليس هناك. فقطبت جبينها. أين يمكن أن يكون؟

قال بولت وهو يقف على السلم:

«إن السيد لايول في سريره يا آنسة. لو كنت أعلم أنك انتهيت من إفطارك لحضرت لأوصلك».

سألت هيلين:

«هل هو مريض؟»

واستدار بولت وقال:

«تعالي من هنا يا آنسة».

وصعدا إلى الدور العلوي واستدارا يساراً نحو غرفة دومينيك.

وفتح بولت الباب وأشار اليها بالدخول. وجدت نفسها في غرفة بسيطة جداً لا تشبه غرفتها. أرضها من خشب مدهون مغطى ببضع أبسطة للزينة وجدرانها عارية. والسرير يشبه سريرها... والهواء البارد يدخل من النوافذ المفتوحة. لاحظت هيلين هذه الأشياء بسرعة ولكن عينيها انجذبتا إلى الرجل الجالس في السرير مستنداً على الوسائد ووجهه الأسمر شاحب ونحيل وانتقلت نظرته منها إلى بولت ثم قال:

«حسناً يا بولت يمكنك أن تتركنا».

وانصرف بولت ونظر دومينيك إلى هيلين قائلاً بهدوء:

«لا بد أنك تتعجبين لاحضاري لك الى هنا».

انفجرت هيلين قائلة:

«لماذا أنت في الفراش؟ هل فخذك أسوأ كثيراً؟»

حوّلت ملامح دومينيك إلى القسوة وقال بخشونة:

«هل يمكن أن نترك موضوع حالتي جانباً؟ إنك هنا لأنني قرّرت أن أتركك تذهبين».

«تتركني أذهب!»

ذهلت هيلين وبدا عليها ذلك.

«نعم، أصلح بولت سيارتك وهي الآن في حالة جيدة وصالحة للاستعمال. كما أنه يقوم حالياً بإعداد حقائبك استعدادا لرحيلك».

ولم تستطع هيلين أن تصدق ذلك:

«ولكن ماذا عنك؟ هل أنت مستعد للرحيل أيضاً؟»

وهز دومينيك رأسه:

«لا أظن ذلك. سنعتمد على أنك لن تفشي مكاننا لأحد».

يا إلهي! فكرت هيلين بأسى ـ إنها لا تريد أن تذهب! ليس الآن وهو في الفراش. قالت مرة أخرى:

«ما الخبر؟ لماذا أنت في الفراش؟ أرجوك، أريد أن أعرف».

«لماذا؟ هل تسعدين لمعرفة مدى ضعفي؟»

«إنك لست ضعيفاً».

«إذن فأنا أتمارض. ماذا يهم؟ ستنسين كل شيء عني وعن أمراضي السخيفة قريباً».

وأطبقت يداه على ملاءة السرير:

«لن أنسى ـ دومينيك ... إني...»

«أرجوك أن تذهبي».

وكان صوته بارداً وحاسماً.

«مع السلامة. بولت سيشرح التفاصيل وبتعلياته لن تجدي صعوبة في الوصول إلى الطريق الرئيسي».

فركت هيلين يديها وقالت بطريقة برئى لها:

«لن أذهب إذا لم تكن تريد ذلك».

ولكنه كان بلا رحمة.

«يا فتاتي الصغيرة ـ أنا لم أكن أريدك هنا منذ البداية!»

كان بولت خارجاً من غرفتها وهي تسير كالعمياء في الممر. وكان يحمل حقائبها وظنت أنها رأت للمحة قصيرة شيئاً من التعاطف في عينيه ولكن هذا لم يدم إلا لحظة ثم أشار إليها أن تسبقه على السلم.

قال بصوت لا تعبير فيه:

«أحضرت كل شيء. هل ستحضرين معطفك أم أحضره لك؟»

«أنا سأحضره».

فتحت هيلين غرفة الملابس ثم قالت:

«آه. كنت أريد أن أشكرك على اهتمامك بأشيائي».

«التي كانت في المطبخ؟ إنها في الحقيبة يا آنسة ـ هل هذا كل شيء؟»

هزّت هيلين رأسها بالايجاب. عليها أن ترافقه حتى الخارج.

وكان قد أحضر سيارتها إلى الباب ولاحظت أنه قام بتنظيفها. ووضع حقائبها في صندوق السيارة ثم أعطاها المفتاح قائلاً:

«المفتاح الآخر في الكونتاكت ـ هل أنت مستعدة؟»

هزّت هيلين رأسها بالايجاب ـ كانت تخشى أن تتكلم من شدة انفعالها.

«حسناً».

وأشار إلى الطريق الذي سارت فيه الليلة الماضية وقال:

«اتبعي هذا الطريق حوالي ميل ونصف وستجدين منعطفاً على يسارك سيري فيه وستصلين إلى قرية. هذه القرية هي هوكسمير. إذا سألت هناك فسيدلونك على الطريق الذي يؤدي إلى المكان الذي تريدين الذهاب إليه».

هزّت رأسها مرة أخرى ثم استطاعت أن تقول أشكرك وهي مختنقة.

«العفو ـ مع السلامة يا آنسة».

«مع السلامة».

نظرت هيلين مرة أخيرة الى المنزل ثم إلى الرجل الذي يقف أمام الباب ثم ركبت السيارة وأدارت المحرّك وتحرّكت بعيداً بدون أن تنظر خلفها.

وصلت إلى هوكسمير قبل أن تتمالك نفسها. وهناك وضح لها

الطريق الذي تسلكه.

وسارت بدون تفكير. يكفي أنها عائدة إلى لندن. وأي أفكار كانت لديها لقضاء عدة أسابيع في منطقة البحيرات أصبحت مرفوضة الآن. وحتى منزل أبيها في ميدان باربارى حيث يعيش مع إيزابيل فهو يمثل ملاذاً لها الآن ولعواطفها الجريحة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل عندما وصلت إلى الميدان ورأت سيارة والدها المرسيدس الرمادية أمام الباب. وتوترت أعصابها. كان هذا شيئاً آخر عليها أن تواجهه. وكانت تشعر أنه لن يكون سهلاً. كانت أطرافها متخشبة بعد أربع ساعات من القيادة. وكانت تشعر بصداع سببه التوتر العصبي. وصعدت سلالم المنزل ثم فتحت الباب بمفتاحها. وقد جذب صوت فتح الباب سيدة سمراء صغيرة الجسم، عندما رأت هيلين رفعت يديها في اندهاش ثم صاحت:

«أوه... أوه آنسة هيلين ـ شكراً لله لقد عدت!»

أغلقت هيلين الباب الخارجي واستندت عليه لحظة تستجمع قواها ثم حيّت مديرة منزل والدها بهدوء:

«أهلاً يا بيسي ـ هل كان هناك ذعر؟»

وهزّت بيسي رأسها:

«وأي ذعر! أين كنت يا آنسة؟»

«يا إلهي! هيلين!»

ونظرت هيلين لدى سماع صوت والدها. كان ينزل السلم بسرعة وهو يحملق فيها وكأنه لا يصدق عينيه. وشعرت بالخجل من نفسها عندما رأت خطوط الارهاق حول عينيه. وفي لحظة كانت في أحضانه القوية وهو يضمها بشدة إلى صدره.

أخذ يتمتم وهو يتجاهل تماماً وجود بيسي:

«أوه. شكراً لله. شكراً لله! أين كنت أيتها الصغيرة المستقلة الغبية!»

شعرت هيلين بالدموع تكاد تنهمر من عينيها، لكنها يجب ألاّ تسمح لنفسها بالبكاء. إذا فكّر والدها أنها تبكي لرؤيته فإن أي ميزة اكتسبتها بذهابها ستضيع

منها ثانية.

وقالت أخيراً بعد أن أفلتها وأخذ ينظر إليها كأنه لا يستطيع إلاّ أن يفعل ذلك:

«ألم تصلك رسالتي؟»

«رسالتك؟ طبعاً وصلتني رسالتك ولولا ذلك كنت فقدت صوابي الآن. بحق السماء أين كنت؟ كلفت نصف مخبري بريطانيا السريين للبحث عنك!»

استطاعت هيلين أن تبتسم:

«هل فعلت؟»

«نعم لقد فعلت. وكدت أدفع إيزابيل للجنون أيضاً. أين كنت بحق الشيطان؟»

سحبت هيلين نفسها من يديه ونظرت الى بيسي باستعطاف:

«هل يمكن أن أشرب شايأ؟ لم أتناول شيئاً منذ الصباح الباكر.»

«بالطبع».

ونظرت بيسي الى فليب جيمس للموافقة وعندما هز رأسه موافقاً ذهبت بسرعة ثم سار والد هيلين الى المكتبة وأقفل بابها المزدوج وراءهما.

قال بعد أن جلست في كرسي مريح ذي مساند:

«والآن أريد أن أعرف كل شيء».

لنهدت هيلين وهي تنظر الى يديها:

«حسناً. ليس هناك شيء كثير يقال، حقاً».

«ماذا يعني هذا بالضبط؟»

وهزت كتفيها قائلة:

«ذهبت إلى منطقة البحيرات».

«ماذا فعلت؟»

«سمعتني يا والدي ـ ذهبت إلى منطقة البحيرات، إلى ذلك الفندق الصغير في بارنيس الذي اعتدنا النزول فيه عندما كنت طفلة».

فضاقت عينا فيليب جيمس وقطب جبينه:

«الثور الأسود؟»

«نعم هل تذكره؟ قضينا أوقاتاً سعيدة هناك. أليس كذلك؟»

حاولت هيلين أن تبدو متحمسة برغم أنها لم تكن تشعر بأي حماس. وقام والدها عن الكرسي وسألها بهدوء:

«وبقيت هناك كل هذه المدة؟»

«نعم ـ أظن أنه آخر مكان كنت تفكر أن تبحث عني فيه».

«في الواقع آخر مكان».

وأخرج علبة سكائره وأخذ منها سيكارة وضعها في فمه.

«ما الذي كنت تريدين الوصول إليه بهروبك؟»

استرخت هيلين. سيسير الأمر على ما يرام ـ أسهل مما توقعت حقاً. سيغضب والدها بالطبع بمجرد أن يستنفد شعوره الأول بالاطمئنان عليها، ولكنها متأكدة أنها تستطيع ان تسوّي الأمر.

ونظرت إليه بحب ـ إنه ليس سيئاً حقيقة في قرارة نفسه. وبعد التجربة المؤلمة التي مرّت بها هذا الأسبوع فإن المشاكل التي ستواجهها معه تبدو تافهة بالمقارنة. وتذكرت المعاناة التي مرّت بها فشعرت بشعور مفاجيء باليأس القطيع فأطبقت شفتيها وحاولت أن تركز تفكيرها على ما يقوله والدها فقط.

وقالت أخيراً:

«كنت أحتاج لبعض الوقت يا والدي ـ وقت لأكون بمفردي ـ لأراجع الأمور بيني وبين نفسي».

ورفع فيليب جيمس كأسه عن الافريز واعتدل. كان متوسط الطول ولكن جسمه الممتلىء قليلاً كان يجعله يبدو أكثر طولاً.

وقال ببطء:

«أظن أن هذا الكلام مقصود به كابح السيارة».

«نعم بشكل ما».

«إنك ما زلت تصرّين على عدم الزواج به؟»

«نعم».

قال بعنف:

«إذن مع من كنت؟ لأني أقول لك يا هيلين أنك لم تنزلي في الثور الأسود في باونيس!»

لحسن حظ هيلين أن بيسي دخلت بمنضدة الشاي في هذه اللحظة وأخذت ترتب الفناجين في أطباقها وتلفت النظر إلى طبق الشطائر والبسكويت وكعكة البهار الطازجة قائلة:

«ظننت أنك قد تكونين جوعى يا آنسة ـ إنك تبدين نحيفة. فندق أو بدون فندق يبدو أنهم لم يكونوا يطعمونك جيداً!»

وصاح فيليب جيمس بغضب:

«هل كنت تنصتين وراء الباب يا بيسي؟»

وتحفزت بيسي:

«لا يا سيدي. أنا لا انتصت على أحد. أنا لست من ذلك النوع. ولكنها ليست غلطتي اذ سمعتك تقول أن الآنسة هيلين لم تكن في ذلك الفندق».

وهزّ فيليب جيمس رأسه باستسلام:

«هذا يكفي يا بيسي ـ يمكنك أن تذهبي ـ الآنسة هيلين تستطيع أن تأخذ ما تريد بنفسها».

وانصرفت مدبرة المنزل وبعد ذهابها انكبت هيلين على إبريق الشاي وهي تحاول إخفاء مفاجأتها بما قاله والدها.

«حسناً يا هيلين، أنتظر الرد».

وقال والدها وهو يعود إلى كرسيه أمامها ويطفيء سيكارته التي لم يدخن إلاّ نصفها:

«أريد أن أعرف أين كنت؟»

أحنت هيلين كتفيها وسألت وهي تحاول أن تكسب بعض الوقت:

«كيف علمت أني لم أكن في باونيس؟»

«بالطرق المعروفة ـ لقد أجرينا البحث وعلمنا أنك لم تكوني مسجلة هناك في الفندق».

«ولكن كيف علمت أني قد أذهب إلى هناك؟»

«لم أعلم ولكن عندما تبيّن أنك لم تغادري انكلترا على الأقل بالطرق المعروفة كان يجب أن أفكر في المكان الذي قد تكونين فيه».

«ولكن باونيس!»

«لم لا؟ قضينا فعلاً أوقاتاً سعيدة هناك. أنا أوافقك على ذلك ـ كان احتمالاً ممكناً».

حرّكت هيلين رأسها بيميناً ويساراً ـ إذن لو كانت ذهبت إلى الفندق الصغير الذي كان يبدو أحسن ملجأ لها من أسبوع لوجدها والدها بعد أيام قليلة. كان يجب ان تفعل الشيء غير المنطقي على الاطلاق. ولكن لو فعلت ذلك لما قابلت دومينيك لايول ولما وقعت في حبه ولما تحملت كل الألم والاذلال على يديه.

واشتدّ شعورها باليأس. هل كانت تفضل ذلك؟ ألا تتعرف عليه اطلاقاً. وألاّ تشاركه ولو لوقت قصير على الأقل آلام وحدته في عزلته؟ لكنها الآن ستعاني من آلامها الخاصة هي ايضاً.

وقالت بتأثر:

«يبدو محزناً ألا أستطيع الذهاب بمفردي لبضعة أيام بدون أن تستأجر فرقة من المخبرين للبحث عني. ما الذي كنت تريده بالعثور عليّ؟ وماذا كنت ستفعل لو وجدتني في فندق الثور الأسود».

بدأ والدها يغضب وقال بصبر نافد:

«لا تجعليني أفقد أعصابي يا هيلين. لقد سألتك أين كنت ومع من. هل ستجيبيني؟»

نظرت إليه هيلين:

«وإذا قلت لا؟»

فوقف والدها كأن الجلوس يضايقه.

« هيلين للمرة الأخيرة».

«لم أكن مع أحد».

«هل تتوقعين أن أصدق ذلك؟»

«لا يهم ماذا تصدق».

« هيلين إني أحذرك».

«أوه يا والدي ـ أرجوك ـ ألا أستطيع أن أشرب الشاي بدون هذا التحقيق؟»

ودفع والدها يديه في جيبي بنطلونه:

«حسناً... حسناً».

وقال وهو يحاول ألاّ يفقد أعصابه:

«اشربي الشاي، أستطيع أن أنتظره».

سكبت هيلين الشاي ووضعت الحليب ثم أخذت ترشفه ببطء. كان الشاي الساخن منشطاً جداً وسكبت لنفسها فنجاناً آخر. وكانت تشعر أن والدها يراقبها وأن عداءه يزداد مع كل دقيقة.

ولم يعجبها الطعام. انها تشعر فعلاً بالخواء ولكنه خواء الروح وليس الجسد. كانت صورة دومينيك الأخيرة وهو شاحب ومتعب في سريره لا تفارقها.

«حسناً يا هيلين... هل ستخبرينني أين كنت؟»

وشدّها صوت والدها إلى محيطها الحالي.

وقالت بهدوء:

«لا أريد أن أجادل معك يا والدي. ألا تستطيع أن تقبل أني قضيت بعض الأيام بمفردي؟»

«ولكن أين قضيت هذه الأيام ـ في فندق؟»

وترددت هيلين:

«وأين يمكن أن أقضيها؟»

«هذا ما أريد أن أعرفه».

تنهدت:

«إني أفضل عدم مناقشة الموضوع ـ إذا كان هذا لا يضايقك».

«إذا كان لا يضايقني!»

وقال وقد أغلق قبضتيه:

«اسمعي يا هيلين ـ يجب توضيح الأمور ـ ليس فقط لي ولكن لجيش المخبرين الذي استأجرته للبحث عنك. ماذا أقول لهم؟»

«ألا تستطيع أن تقول إنه كان خطأ كبيراً وأنني لم أكن مقصودة؟ أقصد ان رسالتي وصلتك».

«هل تظنين أني أطلعتهم على رسالتك؟ هل تظنين أنني غبي؟»

ووضعت هيلين فنجانها الفارغ.

«أنا آسفة يا والدي لكنني لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع».

«لم لا؟ ما الذي حدث؟ هيلين ـ قد لا أكون ذكياً فيما يختص بك ولكني أعلم أنك تخفين شيئاً. هناك شيء يضايقك أو شخص ما! وأنا أنوي معرفة الحقيقة».

وضاقت عيناه:

«ما هذه الكدمة في جبهتك؟ كيف حدثت؟»

«لا شيء... لقد خبطت رأسي. هذا كل ما في الأمر».

«كيف خبطت رأسك؟»

«كيف يخبط أي شخص رأسه؟ أرجوك يا والدي إنا تعبة ومرهقة ـ هل أستطيع أن أذهب الى غرفتي».

«هل ضربك أحد؟ هل هذا ما حدث؟ لأني أحذرك يا هيلين إذا كان هذا ما حدث واكتشفت من هو...»

«لا تكن دراماتياً يا والدي ـ إنك تعلم شعوري بالنسبة الى مايك قبل أن أذهب. ولن تستطيع إرغامي على هذا الزواج. ولا شيء تستطيع أن تقوله سيجبرني عليه».

أخذ يذرع الغرفة بضيق قائلاً:

«ولم لا؟ ما الذي يعيب مايكل؟ يا إلهي، لقد قضيت معه وقتاً طويلاً وكنت أظن أنكما معجبان ببعض وكذلك والده كان يظن الشيء نفسه».

«كنا وأظن أننا مازلنا ـ ولكن هذا لا يكفي لأن نتزوج».

«لم لا؟ هل تظنين أني وإيزابيل...»

«ما فعلته أنت وإيزابيل يخصكما وأنا لا دخل لي به».

واحمرّ وجه والدها:

«إذا كنت لا تريدين أن تتزوجي ما يكل إذن لابد أنك وجدت شخصاً آخر».

«حقاً يا والدي؟»

«ما الخطأ في هذا الرأي؟»

«من كنت سأقابل وأنت ووالد مايك وراءنا في كل لحظة؟»

«لا أعلم... من الجائز أنك تصرفت...»

«لا لم أفعل».

ونظر في عينيها:

«هل يمكنك أن تؤكدي بأمانة أنك قضيت هذه الأيام الأخيرة بمفردك ـ أو على الأقل بدون صحبة رجل؟؟»

أحنت هيلين رأسها بسرعة حتى لا يرى والدها وجهها وقالت:

«نعم».

«أنا لا أصدقك. أنا لم أصدقك من قبل وأنا لا أصدقك الآن ـ هيلين. إذا كنت تكذبين عليّ...»

«ماذا يحدث هنا؟»

جاءت كلمات زوجة أب هيلين الباردة الهادئة كالماء على الهواء الساخن. ولأول مرة تشعر هيلين بالسرور لرؤيتها برغم أن كلماتها لم تكن مرحبة. قالت بجفاف:

«إذن لقد عدت. كان يجب أن أفهم. فيليب هل هي طريقتك للترحيب بالشاة الضالة؟»

أحنى فيليب كتفيه العريضتين وهو ينظر الى زوجته:

«لا تتدخلي في هذا يا إيزابيل ـ لقد عدت مبكرة أليس كذلك؟ ألم تستطيعي اللعب؟»

«إن اهتمامك يغمرني يا عزيزي ـ ولكن الجوّ كان بارداً ورغم أني أحب الغولف لكنها ليست لعبة يمكن مما رستها بأصابع متجمدة».

ثم نظرت بعينين فاحصتين إلى هيلين:

«حسناً. أين كنت؟ هل كنت تقضين أسبوعاً ممتعاً مع حارس الغابة؟»

«إيزابيل!»

أسكتها صوت زوجها. وقامت هيلين بعدم اتزان وسألت بهدوء:

«هل أستطيع أن أذهب الى غرفتي يا ابي؟»

قال فيليب بغضب:

«آه. نعم. ولكن الموضوع لم ينته بعد».

«نعم يا ابي».

سارت هيلين نحو الباب وهي تحاول السيطرة قدر الامكان على نفسها. كل شيء يتكرر مرة ثانية. المجتمع غير الطبيعي الذي تربت فيه يستمر مرة أخرى وهي تكره التكلف وعدم البساطة فيه. ربما كان دومينيك على حق في الابتعاد عنه. وربما يجب عليها أن تفعل الشيء نفسه. ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أن الأمور لن تكون كما كانت.

وخلال الأسابيع التالية حاولت هيلين أن تعود الى نظام حياتها القديم، وبمجرد أن علم أصدقاؤها بعودتها كانوا متحمسين لدعوتها الى العشاء لكنها كانت فقدت حماسها لهذه الأمور. كانت تريد ابعاد كل الأفكار الخاصة بذلك الأسبوع عن مخيلتها. ولكن هذا كان مستحيلاً. وكان دومينيك يسيطر على تفكيرها. كانت لا تأكل ولا تنام وبدأ تأثير ذلك يبدو عليها.

وكان ما يكل فراملي أول من لاحظ التغير عليها. بدأت تقابله مرة أخرى من ناحية لأنه هو ووالدها يتوقعان ذلك. ومن ناحية أخرى لأنه كان مرافقاً مريحاً حريصاً على مشاعرها لدرجة منعته من توجيه الأسئلة. وفكرت هيلين أنها قد تخبره ذات يوم بما حدث لأنها تستطيع أن تفضي بمشاكلها لمايك ولا تعرف ما إذا كان رد فعله سيكون متفهماً كالمعتاد عندما يتعلق الأمر بمسألة تخصه كهذه.

وبعد ظهر أحد الأيام بعد أن زارا أحد المعارض الفنية في قاعة هيوارد تناولا الشاي في مطعم صغير بجوار نهر التيمس. كان الجو دافئاً وكانت أزهار النرجس الصفراء قد بدأت تتفتح في الحديقة. وانتظر مايك حتى انصرفت الفتاة التي أحضرت لهما الشاي وقال بهدوء:

«إلى متى تظنين أنك تستطيعين الاستمرار على هذه الحال؟»

ورفعت هيلين رأسها بعنف. كانت ترسم بأصبعها على مفرش المنضدة وهي

سارحة في أفكارها وغير منتبهة إلى وجوده تقريباً. وصاحت وقد احمرّ وجهها:

«أنا... ماذا تعني؟»

«أظن أنك تعرفين ماذا أعني».

قال ذلك ثم تولىّ سكب الشاي لنفسه.

«إلى متى تستطيعين العيش هكذا على أعصابك؟ أنك لا تأكلين ومظهرك يدل على أنك لا تنامين أيضاً».

وقالت محاولة تغيير الموضوع إلى مزاح:

«هل منظري بهذا السوء؟»

فتنهّد مايك:

«شكلك على ما يرام وأنت تعرفين ذلك. لكننا نعرف بعضنا جيداً يا هيلين، وأنا أعلم أن شيئاً ما أو شخصاً ما يضايقك».

قالت هيلين وهي تمد يدها إلى قدح الشاي:

«كان الشتاء طويلاً».

«أنا لم ألاحظ ذلك».

«لديك عملك ـ أليس كذلك؟»

قال مايك وهو يشرب الشاي:

«حسناً... إذا كنت تفضلين عدم الكلام عن الموضوع»

وقالت هيلين:

«أنا لم أقل ذلك بالضبط».

«إذن فأنت تعترفين أن هناك شيئاً يقلقك؟»

هزت هيلين رأسها وقالت ببطء:

«نعم أظن ذلك».

«إنه رجل أليس كذلك؟»

«تقريباً».

لم تدر هيلين بماذا تجيبه.

«مايك ـ إنك تعلم أن والدي ... أقصد أنك تعلم أن والدينا يتوقعان أن نتزوج».

«بالطبع».

«وقد خمّنت... على الأقل بمعرفتك أني لا أريد الزواج منك؟»

فأمال مايك رأسه:

«هذا واضح جداً حتى لي».

نظرت إليه هيلين بأسف:

«أوه يا مايك. إنك لطيف جداً! كنت أتمنى أن أحبك ـ كان الأمر يصبح أكثر بساطة».

وهزّ مايك رأسه:

«الحياة نادراً ما تكون بسيطة يا هيلين وأنا متأكد أن هذه طريقة لطيفة لتخبريني أنك لا تريدينني».

«ربما».

فقالت هيلين وهي تضع يدها على يده فوق الطاولة:

«ولكنك لطيف وطيّب ومتفهم».

ورد مايك عابساً:

«يا له من اعتراف خطير!»

«أنت تعلم ما أقصد».

«للأسف أني أعلم ـ وبمعنى آخر أنا لا أثيرك، ولكن شخصاً آخر يفعل هذا ـ هل هذا ما تحاولين قوله؟»

نظرت هيلين إلى يده البيضاء الرقيقة المختلفة تماماً عن يد دومينيك القوية السمراء:

«نعم ـ هذا ما أحاول قوله».

«إذن هذا الأسبوع الذي غبت فيه، هل كنت مع هذا الرجل؟»

صحّحت هيلين قائلة بهدوء:

«قابلته عندما كنت غائبة».

«فهمت. ووالدك لا يريد أن تكون لك به أية علاقة؟»

«بحق السماء! الأمر ليس كذلك على الاطلاق!»

سحبت هيلين يدها وأطبقت قبضتيها:

«والدي لا يعرف شيئاً عن الموضوع وأنا لا أريدك أن تخبره».

«لم لا؟»

«لأنه لم يفهم».

«لماذا؟ من هو ذلك الرجل؟ ماذا تعرفين عنه وأين يعيش؟»

«أوه يا مايك. لقد بدأت تفعل مثل والدي».

وقال مايك وهو يضغط على نفسه لئلا ينفد صبره

«حسناً... تكلمي أنت في الموضوع بكلماتك».

«إنه كاتب».

«كانت قصص؟»

«ليس بالضبط ـ إنه يكتب كتباً غير روائية».

«هل أعرفه».

«لا أظن».

«لم لا؟ إني أعرف كثيراً من الكتاب».

«إنه لا يختلط بالمجتمع».

«من هو؟»

«لا أستطيع أن أخبرك».

«لم لا بحق السماء؟ هيلين أنت تعرفين أن أي شيء تخبريني به سأبقيه طيّ الكتمان وإلا ما كنت بدأت أصلاً أن تقصي عليّ ما حدث».

«أعرف، ولكن هذا مختلف ـ لقد وعدت».

واسترخى مايك في كرسيه وقال بضيق:

«إنه مأزق».

قالت هيلين وهي تحتضن فنجان الشاي في يدها:

«حسناً، على الأقل أنت تعرف الموقف الآن».

«ليس بما فيه الكفاية. إنك تقولين أنك قابلت أحداً وأنت مسافرة. وأن هذا الشخص يثيرك! ماذا تعنين بذلك؟ هل تحبينه؟»

ترددت هيلين ثم قالت:

«وعلى فرض أني أحبه؟»

قال مايك بصبر نافد:

«لماذا لا تتزوجان إذن؟»

«قد يكون هذا غريباً يا مايك ولكن أظن أنه يميل إليّ كثيراً».

فعكس وجه مايك اندهاشه:

« هيلين هذا يصبح أكثر جنوناً كل لحظة!»

«لماذا؟»

«كيف وقعت في حب ذلك الرجل إذا كان هو لا يميل إليك؟»

قالت هيلين بأسف:

«بسهولة جداً للأسف».

وردّ مايك وهو يمسك يدها:

«أوه يا هيلين ـ ألا تظنين أن كل ذلك خيالي أكثر من اللازم؟ أقصد أنك قابلت رجلاً انجذبت إليه وظننت أنك وقعت في حبه ولكن يبدو أن كل شيء انتهى الآن ـ أليس كذلك؟ ما الذي تستطيعين عمله؟ لا معنى للمخاطرة بصحتك بعدم الأكل والنوم».

«هل تظن أني لم أقل ذلك لنفسي مئات المرات؟»

واستمرّ يقول بإصرار:

«إلى جانب أنه من المحتمل أن يكون متزوجاً أو شيئاً من هذا القبيل. هل فكرت في هذا الاحتمال؟ في كل حال لابد أن هناك امرأة في الموضوع».

قالت هيلين بتأكيد:

«إنه ليس متزوجاً».

«قد يكون له خطيبة».

«لا!»

«كيف يمكنك أن تتأكدي من ذلك».

«لأني أقمت في منزله».

وبعد أن نطقت بتلك الكلمات تمنت لو أنها لم تفعل. كان مايك يحملق فيها غير مصدق ما تقول كأنه لم يرها من قبل. أحست بالحرارة في خديها.

ردّد مايك بعدم تصديق:

«أقمت في منزله؟ كيف يمكن أن تفعلي ذلك بحق الجحيم؟»

وهزت هيلين رأسها:

«أوه يا مايك... أرجوك لا تسألني. أرجوك».

«هل عشت معه؟»

«إذا كنت تقصد كزوجين فالجواب لا!»

بدا عليه شيء من الارتياح ثم استمر قائلاً:

«ولكن كان هناك علاقة ما بينكما أليس كذلك؟»

«تستطيع أن تقول ذلك».

فتنفس بعمق:

«أوه يا هيلين! لم لا تقولين لي الحقيقة؟ قد أستطيع مساعدتك».

«حسناً ـ سأحاول أن أخبرك بقدر ما أستطيع».

وهزّ مايك رأسه موافقاً واستطردت تقول:

«لقد توقفت سيارتي في العاصفة الثلجية».

«أية عاصفة؟»

«العاصفة التي واجهتني وأنا أقود سيارتي».

«إذن ذهبت فعلاً إلى منطقة البحيرات؟»

«نعم وكما قلت توقفت سيارتي وقد أتى هذا الرجل لمساعدتي».

«آه فهمت».

«لم يرض أن يأويني تلك الليلة وقبلت».

«استمري».

«في الصباح كان الجو أسوأ ـ فبقيت في منزله».

«بمفردك مع هذا الرجل».

«لا ليس بمفردي ـ كان لديه خادم ـ كنا ثلاثة».

«وبقيت كل الأسبوع بمنزله؟»

«نعم».

«ووقعت في حبه؟»

«نعم».

«إذن لماذا عدت؟»

«لأنه طلب مني أن أذهب».

نظر مايك للسماء:

«يا إلهي! لماذا؟ ماذا فعلت؟»

لم تستطع هيلين أن تقابل نظرته:

«لم أفعل شيئاً. لقد أخبرتك بما حدث».

«بل قصة معينة عما حدث».

«ماذا تقصد؟»

«يا هيلين... لماذا يطلب منك هذا الرجل أن تبقي في منزله إذا كنت لا تعجبينه؟ ثم لماذا يطلب منك فجأة أن تذهبي؟ إن هذا غير مفهوم. هل كان جذاباً جداً؟»

فتنهدت هيلين:

«إنه يعرج - وهذا يسبب كثيراً من المشاكل».

«هل هو كسيح؟»

«ليس بالضبط - إنه يحتاج للراحة».

«وهذا هو الرجل الذي وقعت في حبه؟»

كان مايك مندهشاً جداً، واضاف:

«تقولين أنه لا يميل إليك وهو كسيح أيضاً فوق كل شيء. يا إلهي! هيلين لم أكن أتصوّر أن...»

نظرت إليه هيلين:

«أعرف ما تحاول أن تقوله يا مايك... إنك لا تستطيع أن تتصوّر كيف أجد مثل هذا الرجل جذاباً بينما أستطيع أن أتزوج شخصاً بكامل صحته وبرصيد كبير في البنك فوق ذلك».

«تقريباً».

قالت هيلين وهي تهزّ كتفيها باستسلام:

«أعرف - أن هذا سيكون شعور والدي بالضبط لو أخبرته».

«هذا طبيعي».

وبدا عليه عدم الادراك الكامل - فقالت:

«ولذلك لم أخبره».

وهز مايك رأسه بالموافقة:

«لقد بدأت أفهم».

أخذ يفكر لحظات فيما قالته ثم قال:

«أخبريني يا هيلين - هذه العلاقة التي كانت بينك وبين هذا الرجل، هل هي علاقة عاطفية؟»

«يمكن أن تسميها كذلك».

«ولكنه لم يكن مهتماً؟»

«لا».

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

قالت بضيق:

«طلب مني أن أذهب - أليس هذا كافياً؟»

«نعم ولكن ألم تفكري في أن السبب قد يكون شعوره بعجزه؟»

فحملقت فيه هيلين:

«ماذا تقصد؟»

«من الممكن أن شعوره بالعجز كبير لدرجة تمنعه أن يطلب من أحد مشاركته حياته».

«لا. لا».

رفضت هيلين أن تفكّر في هذا الاحتمال الجديد المقلق - إنه ببساطة غير ممكن - إن مايك لا يعرف جميع الحقائق فكيف يمكن أن يعطي تفسيراً معقولاً؟ على سبيل المثال فهو لا يعلم أن دومينيك لم يدعها للبقاء في منزله

ولكنه حبسها فيه. وهو لا يعلم أنه منذ ذلك الحادث الرهيب الذي قتل فيه شقيقه وأدى لاصابته، يرفض دومينيك مخالطة النساء. وأخيراً لا يعلم أن دومينيك كان ينوي في تلك الليلة الأخيرة أن ... ولم يمنعه من ذلك إلا اعترافها المفاجيء بحبها له. هذا الحب الذي رفضه على الفور ـ لا، إن دومينيك ليس عاجزاً بأية حال.

«وماذا ستفعلين الآن؟»

شدّها صوت مايك من تأملاتها.

«لا شيء على ما أظن».

«هل تدركين أن والدك مازال مصمماً على أن يعرف أين كنت؟»

فغامت عيناها:

«هل أخبرك بذلك؟ هل طلب منك أن تحاول أن تعرف؟»

قال بصراحة:

«نعم».

وهزت هيلين رأسها:

«لقد خمّنت ذلك».

وأمسك يديها بحنان:

«تعلمين أنك تستطيعين أن تثقي في ـ أليس كذلك؟»

قالت وهي تبتسم قليلاً:

«نعم أعلم ولولا ذلك ما كنت هنا».

٩ ـ الزيارة

رغم أن هيلين رفضت اقتراح مايك بأن دومينيك قد تكون لديه أسباب جعلته يطلب منها الرحيل، وجدت نفسها في الأيام القليلة التالية تفكر باستمرار في هذا الاحتمال.

خطط كثيرة تواردت على ذهنها ولكنها استبعدتها. ولم تستطع أن تصل إلى قرار، إلا عندما عرفت رأي أيزابيل. كان ذلك صباح أحد الأيام بعد أسبوع من عودتها. كان والدها قد انصرف إلى عمله وجلست هي و إيزابيل تشربان القهوة وقالت بقسوة:

«إنك تبدين في أسوأ حال. بحق السماء يا هيلين اذهبي لرؤية هذا الرجل أيا كان!»

«أي رجل؟»

«أوه لا تقولي لي هذا الكلام».

وأخذت إيزابيل سيكارة.

«ذلك الرجل الذي يجعلك لا تنامين. لا داعي لأن تتظاهري بغير ذلك ـ أنا أعرف الأعراض».

ونظرت هيلين إلى يديها.

«هل طلب والدي منك أن تحدثيني في هذا الأمر يا إيزابيل؟»

«بالطبع لا... هل تظنين أن والدك يتصوّر أني أستطيع التأثير عليك في أي اتجاه؟»

«لا أظن ذلك».

«إذن لماذا لا تذهبين لرؤيته؟ لا بد أنه رجل له قيمته. إنني لم أرك بهذا الشكل أبداً!»

فتنهّدت هيلين وقالت:

«إنك تجعلين الأمر يبدو سهلاً».

«أليس هو كذلك؟ ما المانع؟ هل هو متزوج؟»

«لا».

«إذن ما الذي يمنعك؟»

نظرت هيلين إلى زوجة أبيها وقالت بهدوء وقد وصلت إلى قرار:

«لا شيء... لا شيء أبداً».

وابتسمت إيزابيل:

«هل أفهم أنك ستختفين لبضعة أيام أخرى؟»

«افهمي ما تريدين».

«في اي حال لا تشغلي بالك ـ سأخبر فيليب أنك ذهبت لقضاء بضعة أيام مع إحدى صديقاتك ـ ما رأيك في ذلك؟»

قالت هيلين بسخرية وهي تقف:

«إنه كالحلم».

وضحكت إيزابيل:

«يا عزيزتي ـ أريدك فقط أن تكوني سعيدة».

«هكذا! وبعيداً عنك أيضاً».

«إنه احتمال مغر».

هزت هيلين رأسها وخرجت من الغرفة. إيزابيل تقول رأيها بصراحة. في أي حال إذا كانت تستطيع أن تهدىء شكوك والدها فهذا شيء حسن.

كان الوقت يقترب من موعد الغداء عندما استطاعت هيلين أن تخرج لتبدأ رحلتها إلى هوكسمير في الشمال.

ووصلت هوكسمير حوالي الغروب وبينما كانت تسير في القرية كانت تبحث بعينيها عن فندق صغير قد يستقبل نزلاء لقضاء الليل. هناك فندق واحد وهو

فندق البجعة وقد أخذت ملحوظة بذلك من باب الاحتياط وزمت شفتيها. هل يحتمل أن يمنعها دومينيك من دخول المنزل بعد أن سافرت كل هذه المسافة؟ هل يرفض مقابلتها؟

كان من السهل أن تجد المنزل القديم في ضوء النهار، لكن ضوء النهار لن يستمر طويلا...زادت سرعتها وأخيراً وصلت إلى الباب الأمامي. لم يكن هناك أي علامة من علامات الحياة وهي تقترب من المنزل. لا دخان يتصاعد من المداخن ولا صوت للحيوانات من الخلف.

أوقفت السيارة وخرجت منها وهي ترتعش وتنظر الى النوافذ البيضاء.

كانت تريد أن تدير المقبض وتفتح الباب، لكن فكرة أن شيبا قد تكون وراءه منعتها. وبدلا من ذلك طرقت الباب ووقفت تنتظر بصبر أن يفتح بولك. ولكن أحداً لم يرد. تردد صوت طرقها في المبنى الخالي فغشيتها موجة من خيبة الأمل غير المتوقعة ـ كان افتراضها الأول صحيحاً ـ إن المنزل مهجور ـ لقد رحلوا!

حاولت أن تفتح الباب يحدوها أمل ضئيل أن تكون مخطئة ولكنه كان مغلقاً بإحكام. وجولة سريعة في الفناء الخلفي أكدت لها أن الحيوانات غير موجودة أيضاً. ولكن إلى أين؟ ومتى؟ ولماذا؟ تنهدت بخيبة أمل. هل تصوّر أنها ستذهب واخبر والدها عن مكانه؟

بشعور من الاكتئاب عادت الى السيارة. ومرّت بها سيارة واحدة في طريق عودتها، سيارة رمادية عادية لكن راكبها كان قصيراً وسميناً وأشقر ولا يشبه أبداً دومينيك لايول أو بولك.

رحّب مدير فندق البجعة بها وبعد أن دخلت غرفتها نزلت لتتناول عشاءها في غرفة الطعام. لم يكن هناك إلا نزيل واحد آخر. كان رجلاً قصيراً أشقر له شارب. كانت شبه متأكدة أنه الرجل نفسه الذي رأته من قبل عندما تركت المنزل، لكنها كانت مشغولة بالتفكير في أشياء أخرى فلم تلق بالاً إلى ذلك الشخص ـ بعد أن انتهت من طعامها حاولت التحدث مع المدير. قالت:

«أخبرني... هل ذلك المنزل في أعلى الطريق... القريب من هنا...»

«هل تقصدين منزل آشبورن يا آنسة؟»

«إذا كان هذا اسمه. مبنى قديم ولكنه لطيف».

«إنه هو يا آنسة. هل أنت مهتمة به؟»

«أنا... حسناً... أظن ذلك».

هزّ المدير رأسه بأسف:

«وجدتيه خالياً ولكنه ليس للبيع».

«ليس للبيع؟»

«لا. الشخص الذي يملكه مسافر. هذا كل ما في الأمر. سمعت أنه ذهب إلى المستشفى».

«المستشفى!»

وصاحت هيلين بدون تفكير ثم أجبرت نفسها أن تسترخي وتبتسم:

«أقصد ـ هذا مؤسف. هل هو أمر خطير؟»

«لا أستطيع أن أعرف بالضبط يا آنسة ـ لم نكن نراها كثيراً».

«ها؟»

«نعم معه شخص آخر اسمه بولت كان يحضر الى القرية وإن كان هذا لا يهمك يا آنسة».

«أوه... إنه يهمني ـ استمرّ».

نظر إليها المدير نظرة غريبة:

«لعلك تعرفين هذا الشخص؟»

أخفت هيلين وجهها في فنجان القهوة وهزت رأسها بشدة بالنفي. واستطرد المدير قائلاً:

«في اي حال أتوقع أنهما سيعودان. ليس هناك أمل كبير في أن يبيعا المنزل».

«لا».

وكانت هيلين تسأل نفسها، كيف تصوغ سؤالها التالي:

«يبدو من المؤسف أن يبقى المنزل خالياً. ولكن لماذا لم يبق بولت؟ كنت أظن أنه يبقى في المنزل بينما مخدومه في المستشفى لو كانا سيعودان».

«آه، نعم. ولكن كما سمعت ذهبا إلى لندن ـ من الجائز أن هذا الشخص كان يجب أن يدخل المستشفى هناك».

« لندن؟»

شعرت هيلين بالتخاذل. جاءت كل هذه المسافة إلى هنا و دومينيك يرقد في إحدى مستشفيات لندن. ولكن لماذا؟ ماذا حدث له؟ شعرت أنها تريد أن تأخذ سيارتها وتسرع عائدة الى لندن. ولكنها بالطبع لا تستطيع ذلك ـ تركها المدير وذهب ليحادث النزيل الآخر. فقامت وصعدت الى حجرتها. ستذهب لتنام مبكرة وفي الغد ستغادر الفندق بمجرد طلوع النهار.

ولأول مرة منذ عدة أسابيع نامت نوماً هادئاً. كانت متأكدة أن ذلك اذ كانت تشعر بأنها مرهقة.

ولكن في اليوم التالي شعرت بانتعاش وعادت الى المدينة بحماس أكثر.

كانت مستلقية بتعب في كرسيها بعد أن آلمتها عيناها من كثرة البحث في دليل التليفون عندما دخل والدها. فنظرت إليه نظرة استكشافية فوجدته في حال من الغضب الشديد.

«ماذا تفعلين بحق الجحيم؟»

سألها وهو يدفع أحد أدلة التليفون الضخمة التي تركتها على السجادة بقدمه.

وتنهّدت هيلين وقالت بهدوء:

«أجري مكالمات تليفونية».

«أرى ذلك ـ من تطلبين؟»

«هل هذا مهم؟ ألا أستطيع أن أجري مكالمة تليفونية قبل أن أسألك؟»

«لا تكوني وقحة!»

ودفع والدها يديه في جيبي بنطلونه:

«لماذا ذهبت إلى هوكسمير أمس؟»

وفتحت هيلين فمها في دهشة:

«كيف علمت؟ أوه ـ لا يمكن أن تطلب من أحد أن يتبعني؟»

«لم لا؟ هناك مخبر يتبعك منذ ثلاثة أسابيع».

كان هذا رد والدها باقتضاب».

وارتعشت شفتا هيلين:

«أفهم».

وقف والدها أمامها ونظر إليها بصبر نافد:

«هل ستخبرينني لماذا ذهبت إلى هوكسمير؟ أم أخبرك أنا؟»

«أنت تعلم؟»

«أظن ذلك».

كان والدها يتنفس بصعوبة.

«أظن أنك ذهبت لمقابلة رجل كنت تظنين أنه يقيم في منزل آشبورن دومينيك لايول.»

كانت هيلين ترتجف:

«أوه يا والدي! لماذا لا تترك الأمور تسير كما هي؟»

«يا هيلين أنت ابنتي الوحيدة. هل تظنين أني سأجلس هادئاً وأتركك تحطمين حياتك ـ حياتك التي خططتها لك؟»

«أنا أبلغ الثانية والعشرين يا والدي».

«وما أهمية ذلك ـ إنك ما زلت ابنتي ومن حقي أن أعرف ماذا تفعلين».

«يا والدي، إنك لا تفهم.»

«أفهم جيداً الآن ـ ماذا كنت تأملين أن تحققي بذهابك للايول ـ هل هو الرجل الذي قضيت معه ذلك الأسبوع؟»

«هل هناك فائدة من الانكار؟»

«لا أظن ـ إن باركلاي كفء جداً».

«لا بد أنه ذلك الشخص المجهول الذي كان في المطعم الليلة الماضية».

«نعم. أظن أنك تستطيعين أن تصفيه بذلك الوصف. كل المخبرين الخصوصيين يجب أن يكونوا كذلك ـ أقصد مجهولين...لأن مهنتهم تتطلب ذلك.فمن غير المفيد لهم أن يلاحظهم الناس».

«نعم أظن ذلك».

«إذن لم تجديه؟»

«لا».

«هذا ليس غريباً. بما أنه موجود هنا في لندن».

طرقت عينا هيلين فقد خطر لها خاطر:

«هل تعرف أين هو في لندن؟»

«ربما أعرف».

واعتدلت هيلين في جلستها.

«أوه يا والدي أرجوك ـ أين هو؟»

قطب والدها:

«لماذا أخبرك؟»

«أرجوك».

«حسناً سأخبرك ـ إنه في عيادة خاصة».

«كيف عرفت ذلك؟»

«باركلاي أكفأ منك قليلا يا عزيزتي. سأل في مكتب البريد عن العنوان الذي ترسل اليه مكاتباته».

وأطبقت هيلين قبضتها:

«يا إلهي! لماذا لم أفكر في هذا؟»

«أشك في أنهم كانوا سيخبروك. من المذهل أن بطاقة المخبر الخاص تبدو رسمية لهذه الدرجة».

وهزت هيلين رأسها:

«أريد أن أراه».

«لا أظن أن هذه فكرة حسنة».

«لا تظن؟»

وقامت هيلين:

«يا أبي ـ إذا لم تخبرني أين هو سأخرج من هذا المنزل ولن تراني ثانية!»

«هيلين! هيلين! بحق السماء لا تتصرفي كطفلة غبية! ماذا يعني هذا الرجل

لايول بالنسبة اليك؟ وماذا تعنين بالنسبة اليه؟ كيف تعرفت عليه؟»

«إذا أخبرتك هل ستخبرني أين هو؟»

أخذ والدها نفساً ثم أجاب:

«حسناً ـ بشرط أن تخبريني بالحقيقة كلها».

ترددت هيلين ثم غاصت في كرسيها وأخذت تحكي ببطء الأحداث التي أدت للقائها بدومينيك ـ أخبرته عن العاصفة الثلجية وتوقف سيارتها ثم الظروف المروعة التي أدت لذهابها معه إلى منزله ـ ثم كيف كان وجهه مألوفاً لديها وكيف تعرفت عليه.

في هذه النقطة قاطعها والدها قائلاً:

«هل تقصدين أن هذا الرجل هو دومينيك لايول بطل السباق؟»

وكان يبدو مذهولاً.

تلعثمت هيلين:

«ظننت أنك علمت».

« هيلين ـ هيلين! إنه ليس اسماً غريباً. لم أحلم أبداً...»

وهز رأسه:

«أسف ـ استمري».

استمرّت هيلين بحماس أكبر الآن بعدما شعرت أن عداء والدها قد خف لحدّ ما. بالطبع كان معجباً بدومينيك لايول... هل من الممكن أنه ما زال معجباً به؟

لم تذكر التفاصيل في علاقتها وإن كانت قد لمحت إلى ما حدث. وعندما أنهت قصتها فقط تنفس والدها محدثاً صفيراً.

«يا إلهي، أي موقف!»

«والآن هل تفهم لماذا لم أستطع أن أخبرك؟»

«كان يمكن أن تثقي بي».

«هل كنت أستطيع حقاً؟»

ونظرت إليه هيلين بشك قبدا عليه الخجل.

«لعل لديك بعض الحق ألا تثقي بي ـ ولكن يا هيلين دومينيك لايول لا بد أنه يبلغ الأربعين عاماً تقريباً».

وافقت بهز رأسها:

«أظن أنه يبلغ الثمانية والثلاثين ولكن ما أهمية ذلك؟»

هز والدها رأسه مرة ثانية:

«إنه كبير بالنسبة اليك. إلى جانب أنك تقولين إنه كسيح».

«أوه يا والدي أرجوك لا تستعمل هذه الكلمة ـ ان به عرجاً فقط. هل تظن أن هذا يهمني ـ حتى لو كان سيمضي حياته على كرسي فإنني سأستمر أحبه!»

ذهب فيليب ليسكب لنفسه كأساً ـ وعندما رفع الكأس في سؤال صامت هزت رأسها بالنفي:

«لا. أشكرك. لا أريد. والآن هل ستخبرني أين هو؟»

«حالاً... حالاً».

ابتلع والدها نصف كأسه ثم قال:

«هل تعلمين لماذا هو في المستشفى؟»

«لا ـ هل تعلم أنت؟»

«لا. إن تحرياتنا لم تصل إلى هذه الدرجة. وقد طلبت من باركلاي أن يتوقف حالياً».

«الحمد لله».

«ماذا تعنين؟»

«أوه ـ يا والدي ـ ماذا سيكون شعوره إذا اكتشف أنك كنت تتجسس عليه؟ سيظن أني أخبرتك».

«لقد أخبرتني!»

«إنك تعلم ما أعني».

تحركت هيلين بصبر نافد:

«يا والدي أخبرني أين هو».

«حسناً».

سحب والدها بطاقة من جيبه الداخلي:

«هذه هي العيادة ـ مديرها هو الدكتور جورج جوهانسن لا أعرف شيئاً عنه سوى أنه مشهور بأنه أخصائي جراحة عظام».

فامتقع لون هيلين:

«أخصائي جراحة عظام! هل تظن أنه دخل هذه العيادة لاجراء عملية جراحية في فخذه؟»

«كيف أعلم؟ إذا كنت مصممة على رؤيته أقترح أن تذهبي وتري بنفسك».

فوافقت هيلين وقد أصابها الدوار:

«نعم ـ نعم سأفعل ذلك».

واتجهت نحو الباب:

«أشكرك يا والدي».

وأحنى فيليب كتفيه بضيق:

«لا تشكريني ـ أنا لا أعد بشيء ـ ولكن إذا كانت رؤية ذلك الرجل ستعيدك إلى الحياة فأنا مستعد لذلك».

تردّدت هيلين لحظة وهي تريد أن تضيف شيئاً ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

وكانت عيادة جوهانسن في شارع هارلي. كانت فيما مضى منزلا فخماً أما الآن فإن طوابقه الثلاثة تحولت الى مستشفى خاص، مجهز تجهيزاً فاخراً. صرفت هيلين سيارة الأجرة وصعدت السلم إلى الباب. ضغطت على جرس صغير. وقفت تنظر حولها بفضول محاولة ألا تفكر في الأسباب التي دفعتها إلى الحضور. وكانت الزهور تعطي جمالا وتخفف الجو الرسمي في غرفة الاستقبال. وبدّد عبيرها رائحة العيادة الطبية. وكانت الصالة التي يؤدي إليها السلم مغطاة بسجادة خضراء فاتحة. وحاولت هيلين أن تدعي أنها لا تختلف عن الفندق.

« هيلين».

قطع عليها تفكيرها هذا النداء المصدوم فاستدارت لتجد بولت ينزل السلالم القليلة التي تفصله عنها.

وقالت بصوت مهتز:

«أوه بولت! بولت هل دومينيك هنا؟»

كان بولت يبدو في شكل رسمي غير مألوف وهو يلبس حلة رمادية ولكنه عندما رأى القلق على وجهها قال بهدوء:

«نعم إنه هنا».

وذهبت هيلين اليه وهي تنظر باستعطاف:

«كيف حاله ولماذا هو هنا؟ بولت، هل أصابه التعب بعد أن حملني؟»

نظر بولت حوله:

«هل قابلت أي شخص في العيادة؟»

«لا لم يكن هناك أحد ـ ضغطت على الجرس ولكن لم يأت أحداً».

ونظر بولت إلى ساعته:

«إنه موعد تناول الشاي ـ الشاي يقدم للمرضى الساعة الخامسة. أظن أن الجميع مشغولون».

أشار إلى غرفة كتب عليها الزائرون:

«لندخل هنا ـ ليس من المحتمل أن يكون أحداً منتظراً في هذا الوقت».

لم يكن هناك أحد فعلاً في غرفة الاستقبال وأغلق بولت الباب وعندما رفضت هيلين أن تجلس كما اقترح سألها:

«ماذا تفعلين هنا؟»

تنهّدت هيلين:

«أريد أن أرى دومينيك».

«كيف علمت أنه هنا؟»

«إنها قصة طويلة ـ بولت أرجوك ـ ألن تتكلم في الموضوع. لماذا أتى دومينيك إلى هنا؟»

دفع بولت يديه في جيبي بنطلونه وقال بحزن:

«قرر أن يجري العملية التي أرادوا إجراءها له بعد الحادث».

«هل تقصد... هل تقصد أنه وافق على أن توضع قطعة من العظم الصناعي في

فخذه؟»

وكانت هيلين مذهولة.

«شيء من هذا القبيل».

«أوه يا بولت».

وضغطت يداها على خديها.

«ومتى ستجري العملية؟»

«أجريت من أسبوعين».

ولم تستطع هيلين أن تصدق.

«من أسبوعين؟ ولكن هذا... كان هذا...»

«بعد ذهابك مباشرة.نعم».

ونظرت إليه هيلين باستغراب:

«لماذا قرر فجأة أن يجري العملية؟»

نظر بولت إلى طرف حذائها:

«لا أعلم حقيقة».

وأمسكت هيلين بذراعه:

«أنا لا أصدقك! لابد أن دومينيك ناقشك في الأمر»

وقال بولت بهدوء:

«وهل هذا يخصك؟»

لمعت عينا هيلين:

«أظن ذلك ـ إني أحبه».

هز بولت رأسه:

«هل حقاً تحبينه؟»

«نعم. نعم ـ حسناً إذا كنت لا تريد أن تخبرني لماذا أجرى العملية، على الأقل أخبرني إذا كانت قد نجحت».

وتردّد بولت:

«إذا أخبرتك يجب أن تعديني بألا تخبريه بما أقوله لك».

«بالطبع».

فقطّبت هيلين جبينها بقلق ـ شعرت من نغمة صوته أن الجواب سلبي.

واعترف رغماً عنه.

«إذن فالجواب لا ـ لم ينجحوا».

وتدلّت كتفا هيلين:

«هل تعرف السبب؟»

«لا أعرف الكلام الطبي. ولكن أساساً يبدو أنه إذا تركت العظمة تلتئم بدون إصلاح فإنها تصبح مصدراً دائماً لتشويه المفاصل الأخرى. وفي هذه الحالة أدى انقضاء الوقت بين الحادث وبين محاولة العلاج إلى أن يصبح الموقف أكثر صعوبة».

«أوه يا بولت».

وشعرت هيلين بشعور غامر بالعطف على الرجل الذي أحبته.

«أوه أين هو؟ يجب أن أراه!»

فتنهّد بولت:

«لا أعرف إذا كان سيوافق أن يراك يا هيلين».

«لم لا؟»

«أظن أنك تعلمين لم لا».

وسارت هيلين إلى الباب وقالت بوضوح:

«سأذهب لأراه ولن يمنعني أحد».

عندما خرجت إلى القاعة مرة أخرى وبولت وراءها، كانت المضيفة أمام مكتبها. ونظرت إلى هيلين باستغراب وأخذ بولت يشرح:

«هذه صديقة للسيد لايول. هل يمكن أن تراه الآن؟»

وشعرت هيلين بامتنان شديد لبولت لتدخله. كان تعريفه لها يجعل وجودها أسهل. فابتسمت المضيفة ووافقت قائلة إنه لا مانع من ذلك. وفتحت الممرضة الشابة الباب وقالت بمرح.

«إن لك زائرة يا سيد لايول ـ تفضلي يا آنسة جيمس».

ودخلت هيلين بشيء من الخوف وهي تتوقع أن يأمرها دومينيك بالخروج، لكن رغم أنه لم يبتسم لم يقل شيئاً يجرحها قبل خروج الممرضة من الغرفة. كان يجلس في السرير الضيق ويلبس بيجاما من الحرير الأحمر الغامق. لم تستطع هيلين أن ترفع بصرها عنه. كانت تشعر أنها لم تره من مدة طويلة، وأنها مشتاقة لرؤيته رغم أن المدة لم تزد عن ثلاثة أسابيع. لم تلاحظ الغرفة الجميلة ذات السجادة الزرقاء والستائر وغطاء السرير ذا اللون الأزرق أيضاً، والتي تختلف عن أي غرفة في مستشفى عادي. وبعد خروج الممرضة فزعت هيلين فجأة عندما سمعت صوته وقد امتلأ بالغضب والخشونة:

«كيف بحق الجحيم وجدتني هنا؟»

تنفّست باضطراب ثم تمتمت:

«هالو دومينيك! كيف حالك؟»

كان وجهه يعكس الضيق الشديد الذي يشعر به فغاص قلبها في صدرها.

«هل أرسل بولت وراءك؟»

«لا، بالطبع».

اقتربت من السرير ـ كانت مشتاقة لتلمس يده السمراء ـ ونظرت إليه وهي تتذكره عندما حملها بين يديه وكانت تشعر بقربه، وتمنت لو احتضنها مرة أخرى ـ ثم قالت:

« دومينيك ـ ذهبت إلى هوكسمير و... وعلمت أنك جئت إلى لندن».

«لماذا ذهبت الى هوكسمير؟»

للحظة تغلب فضوله على غضبه، فأجابت باشتياق:

«اردت أن أراك مرة ثانية».

والتوت شفتاه:

«حقاً؟ لماذا؟»

« دومينيك. إنك تعلم لماذا».

لم تستطع أن تكمل كلامها... مدت يدها لتمسك بيده. ولكنه سحبها بعيداً.

وقال ببرود:

«أظن أنك ترتكبين خطأ ـ أوضحت لك الموقف بما فيه الكفاية من عدة أسابيع ماضية ـ لا يوجد بينك وبيني أي شيء».

حبست هيلين أنفاسها:

«أنا لا أصدق ذلك».

«لا يهمني إذا كنت تصدقيه أم لا».

وقطّب حاجبيه:

«كيف وجدت هذا المستشفى؟ أنا لم أخبر أحداً إلا بولت!»

«ليس بولت».

وتكلّمت هيلين بصعوبة:

«إذا كان لا بدّ أن تعرف فقد استأجر والدي من يتبعني».

«ماذا تقصدين؟»

وبدأت تبكي:

«استأجر والدي مخبراً خاصاً ليتتبعني ـ أخبرتك عن شخصية والدي. حاول أن يجبرني عندما عدت أن أخبره أين كنت».

«لماذا لم تخبريه ببساطة أنك كنت تقيمين في فندق؟»

«فعلت ولكنه كان قد اتصل بالفندق الذي ذكرته وعلم أني غير موجودة فيه وبعد ذلك...»

وصدرت عنها حركة تعبر عن الاستسلام.

وأطبقت يدا دومينيك:

«وأظن أن ذلك المخبر وجد العيادة؟»

«نعم».

تنهدت هيلين وقالت:

«لكن والدي لم يعرف من أنت إلاّ... إلاّ عندما أخبرته».

ضاقت عينا دومينيك:

«أنت أخبرته؟»

«نعم اضطررت إلى ذلك. رفض أن يخبرني أين أنت إلاّ إذا... إلاّ إذا...»

وحملق دومينيك في اتجاه النافذة.

«هل أنت متأكدة أن هذه هي الحقيقة كاملة؟»

«ماذا تعني؟»

«حسناً ـ هل أنت متأكدة أن المخبر لم يذهب إلى هوكسمير واكتشف أني في المستشفى؟ ثم استنتج الباقي؟»

بدا على هيلين عدم الفهم.

«أنا لا أفهم».

ونظر إليها مرة أخرى:

«أظن أنك تفهمين. ألم تستنتجي أني في المستشفى لأصلح فخذي».

«أنا... حسناً، نعم».

«ظننت ذلك ـ وهل فكرت أني فعلت ذلك من أجلك؟»

«لا... أنا...»

لكنها كانت قد فكرت في ذلك. خطرت لها هذه الفكرة بشكل غير محدد بعدما تكلّمت مع بولت وكان يبدو ذلك على وجهها.

ثم سألها:

«مع من تحادثت منذ مجيئك إلى هنا؟»

«لماذا... لا أحد».

«حسناً... أنا لا أريدك أن تناقشي أموري مع أي شخص ـ هل تفهمين؟ أموري لا تخصك. أنا آسف لأن أخيّب أملك ولكن عندما أخرج من هنا ليس لدي النية في أن أستعمل حريتي المستعادة في البحث عنك».

«حريتك المستعادة؟»

«بالطبع ـ إنك لا تعرفين. أليس كذلك؟ لقد نجحت العملية نجاحاً كاملاً. وسأصبح شخصاً جديداً تماماً بعد بضعة أشهر. ولكنك لن تكوني موجودة للمشاركة في الاحتفالات وسأرسل اليك بطاقة من فلوريدا أو جامايكا أو أي مكان آخر».

تجمّدت هيلين في الحال. ما الذي يقوله؟ العملية نجحت في تصحيح فخذه؟

ولن يعرج عندما يخرج من المستشفى؟ ولكن بولت قال إنها فشلت وإن التشويه لا يمكن علاجه!

وشعرت بالدوار. لا بد أن أحداً منهما يكذب ـ ولكن أيهما؟ وفي أي حال هل يهم ذلك؟ دومينيك لا يريدها. أوضح ذلك تماماً. يجب أن تخرج من هنا وكلما أسرعت كان ذلك أفضل.

ونظرت إلى الباب. كان يبدو بعيداً ولكنها تستطيع أن تتالك نفسها حتى تخرج يجب ألا تنهار أمامه.

وتحركت بعدم ثبات وعندما وصلت إلى الباب ووضعت يدها على المقبض قال:

«لا تقلقي لمعرفة والدك بوجودي. أنا متأكد أنك عندما تخبرينه بما حدث سوف يسعده الاحتفاظ بهذه المعلومات لنفسه».

ونظرت إليه هيلين نظرة أخيرة. إنها لن تفكر فيه بعد اليوم.

١٠ ـ هالو هيلين!

شعرت بالارتياح لأنها لم تقابل بولت وهي خارجة من المبنى.

أشارت لسيارة أجرة وهي في حالة أقرب إلى الدوار، وأعطت السائق عنوان منزل والدها. ولكن في منتصف الطريق غيرت رأيها وطلبت منه أن يأخذها إلى شاطىء النهر ـ ولاحظت أن السائق ينظر إليها بطريقة غريبة عندما دفعت له أجرته وفكرت بطريقة هيستيرية انه يعتقدها ستنتحر.

راودتها هذه الفكرة وهي تنظر إلى المياه المظلمة أسفل الجسر. كانت تعلم أن والدها ينتظرها في المنزل الأمر الذي ملأها بالاكتئاب. لم تكن تريد الكلام عن المشهد الذي حدث بينها وبين دومينيك ولكن لم يكن أمامها مخرج.

أخذت تتجول بلا هدف بينما حركة المرور على أشدها. ثم دخلت مقهى وطلبت بعض الشاي. الساعة حوال السابعة مساء عادت إلى المنزل. وعندما توقف التاكسي أمام الباب قفز والدها هابطاً السلم وذهب ليساعدها. تمتم قائلاً وهو يمسك ذراعها:

«أوه حمداً لله! هل تريدين أن أصاب بأزمة قلبية؟»

وارتعش فمها. كانت تشعر دائماً أن والدها قوي لا يقهر.

وبدأت تقول:

«آسفة إذا كنت سببت لك القلق».

ولكنه قاطعها بحدة:

«قلقت عليك؟ هيلين ـ هل تلاحظين أنك تركت العيادة منذ أكثر من ساعة ونصف!»

وقالت بتعب:

«أظن أنك اتصلت تليفونياً».

«طبعاً اتصلت تليفونياً ـ أين كنت؟»

«ذهبت أتريض سيراً على الأقدام ـ على شاطىء النهر».

«شاطىء النهر؟»

واصفرّ لونه قليلاً:

«يا إلهي ـ هيلين هل كنت تفكرين...»

واعترفت بهدوء:

«نعم ـ فكّرت ـ أوه يا أبي! إني تعيسة جداً!»

وانفجرت باكية.

بعد حوال ثلاث ساعات دق جرس الباب في منزل جيمس في ميدان باربادي. كانت هيلين في فراشها لكنها لم تكن نائمة رغم أن والدها أعطاها بعض الأقراص المنومة قبل أن يخرج مع إيزابيل إلى العشاء.

منذ عودتها إلى المنزل هذا المساء أخذت تراجع رأيها في والدها ـ كان طيباً ورقيقاً ومتفهماً ـ وأدركت أنه في الحقيقة مهتم بسعادتها كأي أب آخر.

وعندما دق الجرس مرة أخرى جلست في فراشها ونظرت الى ساعتها. كانت الساعة حوال العاشرة والنصف. من الذي يحتمل أن يأتي في مثل هذه الساعة من الليل؟ إلا إذا وقع حادث لوالدها وزوجته. خرجت من فراشها وارتدت ثوباً من الشيفون الأخضر الشفاف فوق قميص نومها. لم تكن بيسي موجودة.

وركضت هابطة السلم واجتازت القاعة ثم فتحت الباب نصف فتحة وفغرت فاها دهشة. كان دومينيك يقف على عتبة الباب ويستند بثقل على عصا.

وقال:

«هالو هيلين ـ هل أستطيع الدخول؟ أريد أن أتحدث معك».

خطوط الاجهاد التي رأتها من قبل حول فمه تبدو أكثر عمقاً.

فتحت الباب ثم وقفت وراءه تخفي نفسها وهو يعرج الى الداخل. تنبهت في هذه اللحظة فقط أن ملابسها خفيفة أكثر من اللازم. فقالت بسرعة:

«سأذهب لأرتدي بعض الملابس».

«لا».

مد يده وأمسك بيدها وهي تمر بجانبه ثم نظر إليها نظرة فاحصة قائلاً:

«لا. لا تذهبي ـ إنك تعجبينني كما أنت».

واحمرّ خداها:

«دومينيك».

«هل هناك مكان يمكن أن نتكلم فيه؟»

أجفل عندما اعترته نوبة من الألم وقال:

«هل أستطيع ـ أن أجلس؟»

«بالطبع... بالطبع. هل تريد أن تستند عليّ؟»

اتسعت عيناها ـ كانت قلقة عليه. ولكنه هز رأسه قائلاً:

«لا أظن أن هذا ضروري».

ولكنها لاحظت أنه يستند بثقل أكبر على عصاه وهي تقوده إلى غرفة الجلوس.

وأضاءت النور ثم وقفت بتردد إلى جانب الباب بينما سار هو نحو الأريكة الواسعة وجلس عليها بارتياح ظاهر، ثم استدار لينظر إليها. ومرة أخرى شعرت بالحرج. وقالت بإصرار:

«لابد أن أذهب لأرتدي ملابس أخرى».

هزّ كتفيه العريضتين:

«حسناً، إذا كنت تريدين أن تكوني محتشمة. ولكن لديّ فكرة جيدة عن جسم المرأة».

فحملقت فيه هيلين وقد نسيت موضوع مظهرها ثم سألت باضطراب:

«لماذا... لماذا أتيت إلى هنا؟»

استرخى على الوسائد. وقد بدا على وجهه التحيف شيء من السخرية بعد أن استراح من عناء المشي. وفكرت بيأس أنها لن تتعب أبداً من النظر إليه، إلى ملامحه السمراء وشعره الفضي الكثيف الذي يسقط باستمرار على جبهته وفمه الذي تبدو فيه الرغبة.

«تعالي وسأخبرك».

ولم يكن في صوته أي سخرية الآن.

فتقدمت هيلين قليلاً ثم توقفت ـ وقالت مرة أخرى:

«دومينيك...»

لكنه مال إلى الأمام وسحبها من يدها وجذبها إليه وعانقها. لم يتركها إلا بعد مدة طويلة. شدّ نفسه واقفاً ونظر إليها قائلاً:

«ليس هنا يا هيلين ـ هل تريدين أن يعود والدك إلى المنزل فيجدنا نتبادل الغرام؟»

وتحركت هيلين كأنها في غيبوبة:

«لا يهمني...»

ورفعت يدها لتلمس خده.

«أوه يا دومينيك إني أحبك».

أمسك دومينيك يدها وأخذ يقبل راحتها قائلاً:

« هيلين. هل أنت متأكدة أنك تعلمين ما تفعلين؟»

هزت رأسها بالايجاب. ثم قامت مستندة على منكبيها وعيناها تطرفان ـ إن شيئاً ما مما قاله قد لفت نظرها ـ فقالت:

«دومينيك ـ هل طلب منك والدي أن تأتي إلى هنا؟»

فترك دومينيك يدها واعتدل في جلسته:

«لا بالعكس ـ لا أظن أنه يرحب بي كزوج لا بنته».

«ماذا قلت الآن».

قال بسخرية:

«أنا متأكد أنك سمعتني جيداً ـ أوه يا هيلين إني أحبك ـ أنا متأكد. لابد أنك أدركت ذلك الآن!»

«أنك تحبني؟»

ارتعشت شفتاها وارتعش كل جسمها بعاطفة أقوى منها.

«أوه يا دومينيك. دومينيك لماذا لم تخبرني».

وألقت نفسها بين ذراعيه ودفنت وجهها في عنقه وقد سالت دموع السعادة والارتياح على وجهها.

«ما هذا؟»

وقال وهو يبعدها عنه:

«لدينا الكثير لنتكلم عنه وإذا بقيت هكذا لن نستطيع الكلام».

فقالت وهي تمسح دموعها وتجلس:

«حسناً ـ قابلت والدي ـ أليس كذلك؟»

«نعم رأيت والدك وكان مهتماً جداً بتأثيري السيء عليك. وإنا أقدر شعوره. فإنه كان يأمل أن تجدي شخصاً يناسبك أكثر مني كزوج».

ووضعت يدها على فمه:

«لا تكمل ـ أنا لا يهمني ما يأمل ـ إني أحبك أنت و... ولقد أخبرني بولت عن العملية».

قال بخشونة:

«نعم. أعلم ذلك الآن».

نظرت إليه:

«كيف؟»

«كيف تتصورين؟ اعترف بولت».

«أرجو ألا تكون قد غضبت منه؟»

«ماذا تظنين؟»

وفجأة جذبها دومينيك إليه:

«يا إلهي حاولت يا هيلين أن أنكر نفسي حقاً حاولت. لقد أخذت أكرر لنفسي أنني يجب ألا أربطك بشخص كسيح بقية حياتك... ولكن هذا المساء».

هز رأسه ودفن وجهه في عنقها وشعرت بجسمه يقشعر.

«عندما أخبرني بولت أنك كنت تعلمين قبل أن تحضري لرؤيتي...»

وأمسك بوجهها بين يديه:

«لقد ظننت حقاً أنك لم تحضري إلا عندما علمت أني سأصبح طبيعياً».

ولفت هيلين ذراعيها حول عنقه:

«إنك طبيعي! أوه يا دومينيك... حبي لك لا يتوقف على كونك تسير بعرج أو بدون عرج... أنا لا يهمني هذا... أنا أحبك...»

وارتعشت شفتاها:

«رغم أني لا أعلم لماذا، بعد الطريقة التي عاملتني بها».

«هل كنت بهذا السوء كلّ الوقت؟»

«لا، ليس كل الوقت».

وافقت وقد احمرّ خداها. واعترف لها قائلاً:

«كدت أفقد سيطرتي على نفسي ذلك اليوم في غرفة السونا ـ ما كان يجب أن أتركك تفعلين ما فعلت».

وضحك من خجلها.

«عديني أنك ستفعلين ذلك مرة أخرى عندما تتزوج».

«كل يوم إذا شئت».

ولكنه هز رأسه:

«لا أظن أن بولت يجب أن يبقى في عمله حالياً. إذا كان هذا لا يضايقك».

«بالطبع لا».

ثم أخذت نفساً عميقاً ـ كان كل شيء جميلاً لدرجة لم تستطع تصديقها.

«هل يمكن أن نعيش هناك حيث تعيش؟»

«إنه بعيد جداً عن لندن».

«وماذا في ذلك؟»

«حسناً ألا تريدين أن تكوني أقرب للمدينة؟ أقصد...»

«هل تريد أن تعيش هنا في لندن؟»

«هيلين ـ قررت أنه إذا كان هذا ما ترغبين...»

«لكن ماذا عنك أنت؟ أنت لا تريد حقاً أن تعيش هنا. أليس كذلك؟»

«أنا لا أريد أن أبعدك عن أصدقائك وأسرتك».

فقالت ببساطة:

«إنا أحب العيش في منزل آشبورن ـ ليس لديّ ما أتمناه أكثر من ذلك».

وسكت دومينيك للحظات ثم أبعدها عنه بإصرار قائلاً:

«قد يكون من الأفضل يا هيلين أن ترتدي ملابسك لأني أنوي الانتظار حتى أكلم والدك ولا أريده أن يصدم. من يدري. قد لا يرفض».

وبعد ستة أشهر من ذلك كانت هيلين تهبط السلم في ذلك المنزل قرب هوكسمير وكانت الشمس تضيء تلك الأمسية. كانت تعلم أنها تبدو جميلة وخاصة في ثوبها الطويل العنبري اللون الذي يخفي حملها عن أقرب العيون. ونظرت أعلى السلم لكن والدها وزجته لم يظهرا بعد. كان دومينيك يقف قرب المكتب يعد بعض المشروبات عندما دخلت. وكان يبدو نحيفاً وجذاباً وهو يرتدي سترة غامقة اللون. كان قد شفي تماماً من العملية وأصبح الآن لا يحتاج للعصا التي كان يستعملها في البداية. نظر إليها نظرة نافذة وترك ما كان يفعله وذهب إليها واحتضنها بين ذراعيه. وقال:

«إنك تبدين جميلة جداً هذا المساء . هل ستخبرينهم؟»

وسحبت هيلين نفسها وهي تبتسم:

«إنهم سيصبحون أجداداً بعد خمسة شهور! هل تظن أني يجب أن أفعل؟»

فقال وهو يبدو مسروراً:

«قد لا تحتاجين إلى ذلك. أنا متأكد أن إيزابيل خمّنت. ألم تلاحظي الطريقة التي كانت تنظر بها إليك بعد وصولهم مباشرة؟ إن البنطلونات والملابس الواسعة مازالت تبدو عادية عليك ولكن هناك شيئاً ما في مظهرك، لا أعرف ما هو...»

ربتت هيلين على خديه:

«هل يضايقك هذا؟»

احتضنها بشدة أكثر ودفن رأسه في عنقها وهو يقول:

«حقيقة كنت أفضل أن أحتفظ بك لنفسي مدة أطول... ولكن طالما أني المسؤول...»

وأمسك بها بتملك.

«انا لا أستطيع أن أقاومك... لم تفلح أية احتياطات».

ولفت هيلين ذراعيها حول عنقه وقد أصبحت لا تحرج مما يقوله:

«أظن أن بولت سيكون مربياً ممتازاً».

«ربما».

ورفع دومينيك رأسه بضيق:

«يا للعنة ـ أظن أن أحدهم قادم ـ لماذا عدنا إلى المنزل ـ أنا لا أحب أن يشاركني أحد فيك».

وتنهدت هيلين برضى:

«يا عزيزي ـ قضينا أربعة أشهر بعيدين ومن الطبيعي أن والدي يريد أن يطمئن إلى أني سعيدة».

«وماذا ستقولين له؟ أني أضربك؟ أني أجعلك تعيسة؟»

وقالت وهي تفرد ذراعيها:

«وهل تظن أنه سيصدقني في هذه الحال؟»

استقرّت نظرة دومينيك على بطنها:

«لا أظن».

ثم قال بسخرية:

«من حسن الحظ أن شيبا ليست هنا الآن. وإلا لأثارت بعض الشكوك».

وضحكت هيلين ـ ثم سمعا طرقة على الباب فاستدارت ونادت:

«ادخل يا بولت».

دخل الخادم الضخم الغرفة على استحياء. ولكن الابتسامة العريضة التي نظر بها إلى هيلين كانت أبلغ تعبير عن موافقته.

وسأل بأدب:

«في أي وقت أقدم العشاء يا سيدي؟»

ونظر دومينيك إلى ساعته:

«أظن بعد حوالي نصف ساعة يا بولت ـ أشكرك. أوه على فكرة يا بولت هل أنت ماهر في غسيل ثياب الأطفال؟»

ارتفع حاجبا بولت الكثيفان في دهشة:

«أنا.. أنا.. أنت لا تقصده.

وقالت هيلين وهي تتجه نحوه باسمة:

«نعم، ونحن نريدك أن تكون أول من يعرف».

وبدا عليه السرور الشديد ـ وصاح:

«أنا سعيد جداً».

ثم ذهب فشد على يد دومينيك فناوله دومينيك كأساً قائلاً:

«خذ هذا الكأس. أنا لا أصبح أباً كلّ يوم!»

رفع بولت الكأس وقال بحرارة:

«إلى الجيل الجديد من أبناء لايول».

وشرب دومينيك معه هذا النخب.

www.elromancia.com